المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
INSTITUT ROYAL DE LA CULTURE AMAZIGHE

أسيناگ

ملف العدد
التنوع اللغوي والثقافي

مجلة المعهد – عدد 1
طبعة ثانية

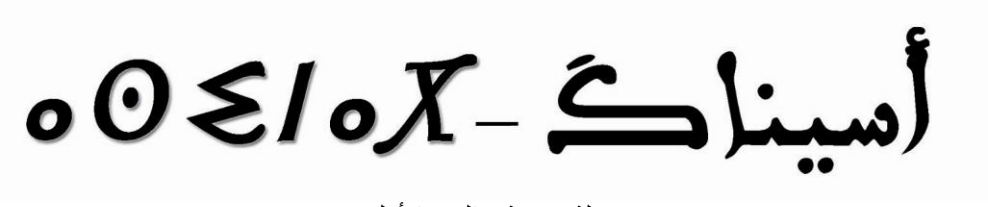

أسيناگ - ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ

مجلة دورية - العدد الأول

أسيناگ-Asinag مجلة علمية وثقافية مغربية، مخصّصة للأمازيغية ومكوناتها اللغوية والحضارية. وهي متعدّدة اللغات، وتشمل ملفات علمية، ومقالات وحوارات وعروض إصدارات، وملخصات أطروحات وإبداعات أدبية، وإشارات بيبليوغرافية. وهي مجلّة مُحكّمة، تتوفر على لجنة علمية، ومفتوحة للمجموعة العلمية الوطنية والدولية.

© المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

2028-5663 : ISSN

رقم الإيداع القانوني : 2008 MO 0062

طوب برس – الرباط2013 — طبعة ثانية

المحتويات

تصدير :**.....7**

تقديم العدد :**.....9**

ملف العدد : التنوع اللغوي و الثقافي

المحفوظ أسمهر، صباح علاش، علي بنطالب

بعض مظاهر التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب عبر التاريخ.....15

عبد اللطيف الركيگ

بعض ملامح التفاعل بين اللغتين الليبية (الأمازيغية العتيقة) والبونية خلال الفترة القرطاجية.....31

رحمة تويراس

تعريب المجتمع في العصر الوسيط ودوره في التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب.....49

ملخصات الأطروحات الجامعية...75

المقالات بالفرنسية

ملف العدد : التنوع اللغوي و الثقافي

أحمد بوكوس

الحقل اللغوي : التنوع والتراتبية

الخطير أبو القاسم – أفولاي

تشكيل الخطاب الوطني وعروبة المغرب

محمد الحيان

الإعلان العالمي لليونيسكو بشأن التنوع الثقافي : محاولة تأويلية

مفتاحة اعمر
عروض
ملخصات الاطروحات
نصوص بالأمازيغية
muÃïafa srpan – مصطفى سرحان
Fuad açëwal - فؤاد أزروال
محمد شفيق
التنوع اللغوي والثقافي، حوار من إنجاز
ⵜⵉⵔⵜⵉⵜ
Saoid lmusawi - سعيد الموساوي
ⵓⵔⵣⵉⵖ ⴳⵎ ⵜⴰⵙⵍⵏⵓⵜ ⵏ ⵓⵏⵥⴰⵕ
mupmmad wagrar - محمد واگرار
ⵡⴰⵥ
ⵉⵥⵎ ⴷ ⵜⵍⴷⵣⵉⵅⵜ

تصـــدير

أسيناگ-asinag هي المجلة العلمية للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. ولفظة ***أسيناگ*** اشتقاق جديد مدلولُه "***معهد البحث***". والغاية من هذه المجلة النهوض بالبحث في مجال الأمازيغية، دون أي منحىً قبليّ من الوجهتين النظرية أو المنهجية. إذ يأتي إحداثها لسدّ الفراغ القائم في مجال النشر بالمغرب، ولفتح دورية تتضمن أعمالا ذات جودة أمام جمهور الباحثين والمفكرين على الصعيدين الوطني والدولي.

وتعد **أسيناگ** أول مجلة علمية وثقافية مغربية ترصد برمّتها للأمازيغية، بمكوناتها اللغوية والثقافية والحضارية. وتصدرمؤقتا على نحو عدد واحد في السنة، حيث تتميز بتعدد اللغات والاختصاصات. كما تتضمن ملفات موضوعاتية، ومقالات علمية وثقافية، وحوارات، وعروض إصدارات، وإبداعات أدبية، وحوليات بيبلوغرافية.

وتتوفر ***أسيناگ-asinag*** على لجنة علمية بتمثيلية واسعة، بها أعضاء مشهود لهم بالكفاءة العلمية في مجالات تخصصهم. أما لجنة التحرير فتشمل باحثين متمرسين، ينتمون إلى هيئة البحث بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. وهي في نفس الوقت لجنة قراءة تستعين بكفاءات من خارج المؤسسة.

وإذ تتوجه مديرية ***أسيناگ-asinag*** بجزيل الشكر إلى المساهمين فيها، من داخل المعهد ومن خارجه، وكذا إلى أعضاء مختلف اللجان، لانخراطهم والتزامهم المحمود في المجلة، فإنها مقتنعة بأن نجاح هذا المنبر العلمي رهين بجودة المساهمات التي سيتلقاها وبالمستوى الرفيع لاحترافية لجنة التحرير والمعهد بصفة عامة. ومن ثم، فإننا جميعا نطمح إلى تقديم منتوج ذي قيمة أكاديمية محترمة. ومما لا ريب فيه، أنه بالتزامنا جميعا سيتأتى تحقيق هذا الهدف النبيل.

مـدير المجلة

---

* ***أسيناگ***، إسم مشتقّ من فعل ***إينِگ***، المتداول في المغرب بمدلول "بَحَثَ"، بزيادة ***أ-*** الإسم في صدره، وحرف ***س-*** الدّالّ على المكان. ومن ثمّ تفيد مفردةُ ***"أسيناگ": "*** المكان الذي يتمّ فيه البحث".

تقديم العدد

يتضمّن هذا العدد الأوّل من مجلة ***أسيناگ-asinag*** ملفا موضوعاتيا حول ***التنوع اللغوي والثقافي***، وركناً مخصّصاً لعروض الكتب، وآخر لملخصات الأطروحات الجامعية في مجالات اللغة والثقافة الأمازيغيتين، فضلا عن إنتاجات إبداعية في بعض أجناس الأدب الأمازيغي المكتوب الصاعد راهناً.

ولم يكن اختيار موضوع ملف العدد اعتباطياً، إذ إن الظرفية الحالية التي تشهد تأكيد المغرب للطابع التعدّدي لهويته الثقافية واللغوية، تضفي على ذات الموضوع أهميته البالغة. واعتباراً للخط التحريري لمجلة **أسيناگ-**□□□□□□، فإن من مزايا معالجة هذا الموضوع الإلافيَة وتعدّد الاختصاصات، و استقطابه لإهتمامات جميع الباحثين في مختلف المجالات المعرفية.

والمغرب مجبول، أساساً، على تعدّديتِه اللغوية والثقافية، التي تعدّ إمكاناً هائلا، ومصدر غنىً وابتكار وازدهار، سيما حين تحظى بالاعتراف وحسن التدبير والاستيعاب. فالطابع التعددي للمغرب مُعطىً يخترق تاريخه. واللغة والثقافة الأمازيغيتان، الموجودتان منذ عصر ما قبل التاريخ، قد اغتنتا، منذ العصر القديم إلى يومنا هذا، بشتى العطاءات الحضارية. والمغرب باعتباره ملتقى مختلف الحضارات، بفضل موقعه الجغرافي وانتمائه للفضاء المتوسطي وللقارة الأفريقية، كان – ولا يزال - مجالا لاحتضان العديد من الشعوب والحضارات الوافدة من شتى الآفاق. إذ تشكّل على أرضه، عبر القرون، تنوّع ثقافيٌّ، أخصبته حمولاتُ روافدَ من مشارب متعدّدة، انْطَبعت كلّها ببصمات وبمعالم الثقافة الأمازيغية.

وفي خضمّ منجزات المغرب الرائدة في مجال النهوض بحقوق الإنسان عامة، وبالحقوق اللغوية والثقافية خاصة، ينْبَري التنوع الثقافي ليفرض ذاتَه كإشكالية معيشة ببلادنا.

يتضمّن الشق المكتوب بالعربية ثلاث مداخلات في موضوع التنوّع اللغوي عبر مختلف الحقب التاريخية : القديم والوسيط والحديث.

يتناول مقال المحفوظ أسمهر وصباح علاش وعلي بن الطالب، مدى حضور البعد الأمازيغي في جميع مظاهر الثقافة والحضارة بالمغرب منذ القديم، وكيف اغتنى هذا التنوّع خلال الحقبة الوسيطية بإسهامات أخرى. كما أن الحقبة المعاصرة عرفت

من التحوّلات المهمّة ما تمخّضت عنه الحماية، على الصعيدين السوسيوثقافي واللغوي.

ويخصّص عبد اللطيف الركيگ مساهمته لحقبة التاريخ القديم ماقبل الإسلام، مبرزاً التفاعلات بين لغة الأمازيغ بأفريقيا الشمالية ولغات الشعوب المتوسطية، وخاصة منها الفينيقيين والقرطاجنيين. فمع وفود تلك الشعوب، تولّدت تفاعلات وتأثيرات لغوية ما بين اللغة المحلّية، أي الأمازيغية، واللغات الحديثة الاستيطان (البونيقية والليبية).

ويقدّم مقال رحمة تويراس تحليلا لظاهرة تعريب المغرب خلال الحقبة الوسيطية. فمن استقراء معلومات مستقاة من النصوص التاريخية لهذه المرحلة، أمكن إبراز معطى أساسي، مفادُه أن التعريب قد ترسخ في العصر الوسيط على مستوى الدولة والمجتمع.

ويتضمن ركن ملخصات الأطروحات الجامعية موجزي بحثي فؤاد أزروال (2005) وعبد السلام خلفي (2007).

أما الشق المكتوب بالفرنسية فيضم ملف العدد وعروضا وملخصات الأطروحات.

في ملف العدد، يقدّم أحمد بوكوس تحليلا للسوق اللغوية ضمن إشكالية انقراض اللغات ومقاومتها. وتوضح الدراسة ما ينتج عن العولمة من علائق القوى اللغوية المترتّبة عن التغيّرات السياسية والاقتصادية والثقافية التي عرفها المغارب.

كما يقوم الخطير أبوالقاسم-أفولاي، في مجال التاريخ المعاصر للمغرب، بتحليل عمل الوطنيين المغاربة وإنتاجهم خلال مرحلة ما بعد الحرب، مبينا كيفية قيامهم بموقَعة صورة الأمة المغربية داخل حدود الوطن العربي.

ويتناول محمد ألحيان بالقراءة الإعلان العالمي لليونسكو بشأن التنوّع اللغوي والثقافي، الذي تم تبنّيه بالإجماع من قِبَل الدول الأعضاء، التي تعتبر التنوع الثقافي "تراثا مشتركا للإنسانية". ويبيّن الكاتب أن مسألة التنوع الثقافي فرضت نفسها في النقاشات الثقافية والعلمية، على المستويين الوطني والدولي.

ويتضمن الملف كذلك حوارا مع محمد شفيق، يعالج من خلاله القضايا المرتبطة بحقوق الإنسان، وبالعولمة وبالحوار ما بين الثقافات، وبالتربية ودورها في التنوع اللغوي والثقافي وفي التنمية البشرية.

أما باب **"عُروض"**، فيتضمن قراءة تحليلية أفردتها فاطمة بوخريص لكتاب : *التبعية وبناء الفعل في تاريفيت : تحليل لبعض علاقات التبعية المعجمية والتركيبية* (2006)، لصاحبه الفقيد قاضي قدور.

وتوخيا للتعريف بالأعمال الأكاديمية غير المنشورة، والمحدودة الانتشار، تم تقديم ملخص لثلاث أطروحات جامعية من قبل أصحابها، وهي لكل من مفتاحة اعمر (2007) بالفرنسية، ونور الدين عمروس (2006) وخالد عنسار (2005) بالإنجليزية.

ويتضمّن الجزء المكتوب بالأمازيغية إبداعات أدبية تتمثل في ثلاث قصائد للشعراء : مصطفى سرحان وسعيد الموساوي ومحمد واگرار، وقصة قصيرة لفؤاد أزروال.

وتتقدّم إدارة المجلة ولجنة تحريرها بخالص الشكر إلى الباحثين : الحسين المجاهد ومحمد آيت حمزة وعلي أمهان ونور الدين عمروس وخالد عنسار والمحفوظ أسمهر وعبد الله بومالك ونورة الأزرق والوافي النوحي، على إسهامهم في إنجاز هذا العدد. كما تشكران أيضا مصطفى الحضيگي ونادية قيدي على مساهمتهما التقنية.

هيئة التحرير

ملف العدد
التنوع اللغوي والثقافي

مجلة *أسيناگ*- □□□□□□، العدد الأول – 2008، ص 15 - 30

بعض مظاهر التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب عبر التاريخ

المحفوظ أسمهر، صباح علاش، علي بنطالب
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

ملخص

يحاول هذا المقال رصد الوضعية العامة للتنوع الثقافي واللغوي بالمغرب القديم والوسيط فالحديث ثم المعاصر. فبخصوص المغرب القديم، يبدو من المعطيات الحالية أن البعد المحلي الأمازيغي كان واضحا في المجالات الحضارية/ الثقافية التي مستها بعض التأثيرات المتوسطية. وفي العصر الوسيط، تفاعل المغرب مع وصول العرب واستقرارهم بمجالات مختلفة من البلاد. وشهد العصر الحديث توافد عدد من المورسكيين واليهود. أما في الفترة المعاصرة، فقد أحدث التدخل الأجنبي تحولات كبيرة خاصة خلال فترة الحماية. كما شهدت فترة ما بعد الاستقلال تحولات أدت في الوقت الراهن إلى تزايد الاهتمام بالثقافة الأمازيغية كرافد أساسي من روافد الهوية الوطنية.

مقدمة

تعتبر الثقافة المحدد الرئيس لتمييز هوية الشعوب بعضها عن بعض. فرغم الصعوبات التي تعترض المتخصصين في التحديد الدقيق لمفهوم الثقافة، إلا أن الأخذ بالمفهوم الواسع للكلمة – والذي يعني مجموع القيم المعنوية والمادية التي تميز مجتمعا عن غيره عبر مختلف العصور- يسمح بالقول إن الوضع الثقافي واللغوي بالمغرب تميز عبر تاريخه الطويل بالتنوع والتعدد، مع اختلاف في حجمه ومظاهره من عصر لآخر. ونلمس أثر ذلك في العديد من الجوانب الحضارية، سواء في التاريخ القديم للبلاد أو تاريخها الوسيط والحديث ثم المعاصر[1]، حيث ارتبطت كل مرحلة بظروف تاريخية أثرت على واقع التنوع الثقافي واللغوي.

[1] تقتضي مقاربة موضوع من هذا القبيل مساهمة باحثين يهتمون بحقب مختلفة من تاريخ المغرب، لذلك كانت مساهمة كل باحث مرتبطة بفترة تخصصه: المحفوظ أسمهر (التاريخ القديم)، صباح علاش (التاريخ الوسيط)، علي بنطالب (التاريخ الحديث والمعاصر).

ويحاول هذا المقال إبراز أهم المحطات التاريخية التي تركت بصماتها على المشهد الثقافي واللغوي بالمغرب عبر مختلف العصور من خلال رصد أهم الظروف التاريخية التي أثرت فيه، فضلا عن إبراز بعض المظاهر التي تعكس تنوع هذا المشهد.

I - ملاحظات أولية على التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب القديم

أصبح من المألوف، كلما أثير موضوع التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب، التأصيل لجذوره في التاريخ القديم. ويبرر هذا بتفاعل ساكنته ، مثل باقي أمازيغ شمال أفريقيا القديم، مع بعض شعوب الحوض المتوسطي، التي برزت في فترات معينة على مسرح الأحداث بهذا الحوض، مثل الفينيقيين والقرطاجيين والرومان والوندال ثم البيزنطيين. وبسبب هذا التفاعل، أصبح ينظر إلى هذه المرحلة وكأنها الفترة التاريخية التي تشكلت إبانها المعالم الأولى للتنوع الثقافي واللغوي في تاريخ المغرب، مع العلم أن ساكنة المغرب القديم كانت لها علاقات مع الضفة الشمالية للحوض المتوسطي قبل ذلك بآلاف السنين.(Souville, 1998).

صحيح أنه حصل تفاعل بين أمازيغ المغرب القديم والشعوب السالفة الذكر، لكن المقاربة التي تم بها تناول هذا الموضوع، لاسيما في دروس التاريخ بالمقررات المدرسية[2]، أدت إلى تصورات خاطئة حول طبيعة هذا التفاعل وحجمه، لأنها عكست فقط النظرة ذات الاتجاه الأحادي التي تجعل المؤثر الخارجي هو الفاعل، رغم الانتقادات العلمية التي وجهت لهذه النظرة (Peyras, 1995). وقد أدى هذا بدوره، في اعتقادنا، إلى سيادة تصور عن واقع التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب القديم، لا يساير مستجدات البحث العلمي حول هذه الحقبة التاريخية.

إن الحديث عن هذا التنوع، بعبارات عامة، في تلك الفترة من تاريخ المغرب، من شأنه أن يحجب الصورة التي تسمح لنا الوضعية الحالية للبحث التاريخي والأركيولوجي بنسجها حوله. ونود أن نشير في المقام الأول إلى أن هذه الوضعية لا تسمح إلا بتناول هذا الموضوع بكثير من الحذر؛ فالعديد من القضايا التاريخية، التي يمكنها أن تسمح ببعض الاستنتاجات والافتراضات فيما يتصل بواقع التنوع الثقافي واللغوي في المغرب القديم، ما تزال تتسم بالغموض والتعقيد.

[2] لم تتغير بعد هذه النظرة في مقررات مادة الاجتماعيات التي أدرجت فيها دروس حول تاريخ المغرب القديم، رغم كثرة الانتقادات الموجهة إليها. ونعتقد أنه آن الأوان لكي يساهم المتخصصون في وضع هذه الدروس. فقد نتج عن غيابهم في هذا المجال عدم مسايرة محتوى هذه الدروس لتطورات البحث العلمي التي تراكمت حول هذه الحقبة التاريخية، مما أدى إلى هدر للمجهودات التي بذلت في هذا الميدان.

وفي هذا الإطار، نعتقد أن تاريخ المغرب القديم له بعض الخصوصيات التي يُفترض أخذها في الحسبان عندما نتناول هذا الموضوع. تأتي في مقدمتها علاقاته بالهجرات التي توافدت، لأسباب شتى، على شمال أفريقيا القديم. فاستقرار هؤلاء الوافدين بالمنطقة ساهم بشكل واضح في إفراز ما نسميه اليوم بالتنوع الثقافي واللغوي، لأنه زاد من وتيرة التفاعل بين حضارات/ ثقافات مختلفة. وباستقراء تاريخ المجال الأفريقي المتوسطي القديم، يبدو أن وضعية جزئه الغربي مخالفة لباقي مناطق هذا المجال فيما يخص استقبال الموجات البشرية الوافدة، إذ يظهر أن هذه الأخيرة استقرت بنسبة أكبر في وسطه وشرقه مقارنة مع غربه، فالقاعدة الخلفية للاستقرار الفينيقي كانت بقرطاج، بينما تركز الاستقرار الإغريقي بقورينا في ليبيا الحالية (Chamoux, 1953).

أما في المغرب القديم، فالمعطيات الحالية تفيد أن أقلية قليلة من بعض شعوب الشرق، خاصة الإغريق، هي التي استقرت ببعض مدنه الكبرى، أغلبيتهم كانت من الفيالق الرومانية المرابطة بالمنطقة (Euzennat, 1976). وبخصوص الاستيطانات التي توالت على الشريط المتوسطي الأفريقي القديم، وما صاحبها من تأثيرات حضارية/ ثقافية، فيبدو أنها توغلت أكثر كلما اتجهنا نحو الشرق : فآخر ما استولى عليه الرومان في هذا الشريط هو شمال المغرب القديم، وهو كذلك أول ما سجل فيه تقهقر لهم. أما الوندال والبيزنطيون فآثارهم واستقرارهم بهذه المنطقة يكتنفه غموض كبير. ونعتقد أن هذا كله من العوامل التي ساهمت في عدم تكافؤ حجم التأثيرات الثقافية واللغوية المتوسطية التي مست المجال المتوسطي الأمازيغي في هذه الحقبة من تاريخه، لذا يبدو من خلال المعطيات المتوفرة حاليا أن هذه التأثيرات تظهر أكثر وسط وشرق هذا المجال، أي كلما ابتعدنا عن المجال المغربي الحالي في اتجاه الشرق.

فإذا انطلقنا من المعطيات الحالية وحاولنا من خلالها رسم صورة تقريبية للواقع اللغوي بالمغرب القديم، فمما لاشك فيه أنه إلى جانب اللغة الأمازيغية، التي كانت هي المهيمنة، تُدوولت بالمنطقة، وبنسب متفاوتة، لغات أخرى. ويبدو من المعطيات الإبيغرافية المتوفرة أن الكتابة الفينيقية كان لها استعمال جد محدود بمراكز المغرب القديم التي تعاملت ساكنتها تجاريا مع الفينيقيين. فما عثر عليه لحد الآن لا يتجاوز حروفا فينيقية على الخزف اكتشفت بكثرة في موقع موكَادور (Amadasi Guzzo, 1992). أما نصيب المواقع الأثرية المغربية القديمة من النقائش المكتوبة بالبونية والنيوبونية (Néopunique) فقليل أيضا، إذا ما قارناه بما عثر عليه في مواقع أخرى بباقي شمال أفريقيا القديم، لاسيما المجال الأفريقي-البوني. ومع ذلك، نلاحظ أن نقود المغرب القديم كتب على جلها بهاتين الكتابتين (Mazard, 1955; Muller,

1862). فهل هذا يعكس انتشار اللغة البونية ثم النيوبونية بالمغرب القديم؟ أم أنه فقط راجع إلى تأثير قرطاج على صناعة النقود بالمغرب القديم لدورها التجاري الكبير في الحوض المتوسطي؟

لا نتوفر حاليا على عناصر كافية للإجابة. لكن ما أثار انتباهنا أن بعض النصوص رغم شح معلوماتها وغموضها، فإنها توحي بأن القرطاجيين أو البونيين لم يكن للغتهم بالمجال المغربي القديم نفس الانتشار الذي كان لها في مناطق المجال البوني الإفريقي ونواحيه؛ فنص هيرودوت (Hérodote, Histoire, IV, 196) المشهور حول ما يعرف بالتجارة الصامتة، رغم كثرة تأويلاته، يوحي أيضا بأن التواصل اللغوي لم يكن جيدا بين المتعاملين، أي أمازيغ المغرب القديم والتجار القرطاجيين. أما نص رحلة حانون الذي يشير إلى مرافقة هذا الرحالة لمترجمين من الليكسيتيين(les lixites=lixitai)، على الساحل الأطلسي المغربي، ليقوموا بمهمة الترجمة بينه وبين الإثيوبيين (Hannon, périple, 8)، فقد أوله الكثيرون على أنه دليل على تداول اللغة البونية بمناطق المغرب القديم التي تعاملت ساكنتها تجاريا مع القرطاجيين، وبالتالي فمهمة مترجمي حانون هي الترجمة من الإثيوبية إلى البونية.

لكن هناك من يرفض هذا التأويل ويرى فقط أنهم مترجمين من الإثيوبية إلى الأمازيغية التي قد يعرفها حانون أو بعضا من مرافقيه (غازي، 2006: 86). لكن السؤال المطروح: هل كان إثيوبيو الجنوب المغربي القديم يتكلمون غير الأمازيغية؟ مع العلم أن مجالهم يحتفظ بالكثير من الأدلة التي تبين أنهم أمازيغ، وعلى رأسها نقائش أمازيغية قديمة على اللوحات الصخرية (Skounti et al, 2003).

أما اللغة اللاتينية فقد كانت مستعملة بالمناطق التي كانت خاضعة لسلطة الرومان. لكن هل كانت تستعمل فقط في الأمور ذات الصبغة الرسمية -كما سيحصل لاحقا مع الاستعمار الحديث- أم كان لها تأثير على لغة التخاطب اليومي لساكنة المغرب القديم من الأمازيغ؟ وما حجم هذا التأثير إن وجد؟ تعوزنا المعطيات للإجابة، لكن يبدو أن المعطيات الإبيغرافية توحي بأهمية استعمال هذه اللغة على المستوى الرسمي خصوصا بالمراكز الحضرية، الأمر الذي يجعل مناطق انتشارها محدودة مقارنة مع مجموع المجال الذي تقطنه ساكنة المغرب القديم. ونعتقد أنه من الأهمية بمكان أن نستحضر في هذا الصدد أن ساكنة المجالات الأمازيغية القديمة التي تعرضت للاستعمار الروماني قاومت الرومنة (Benabou, 1976)، أي أنها قاومت، بوعي أو بغير وعي، كل ما نسميه اليوم "مظاهر الغزو الثقافي الاستعماري".

بالإضافة إلى كل ما سبق، نعتقد أن ثمة أيضا عامل آخر ساهم في اختلاف حجم التنوع اللغوي بين مختلف مناطق المجال الأمازيغي المتوسطي القديم. نقصد هنا الإشعاع الكبير للمدرسة القورينائية (بليبيا الحالية) والمدرسة القرطاجية، إذ يبدو أن كلا منهما ساهم في انتشار لغات أخرى (الإغريقية والبونية والنيوبونية واللاتينية) بالمجالات الأمازيغية المجاورة لها. وبالمقابل لم تكتشف بالمغرب إلا نقائش معدودة بالإغريقية والعبرية، أغلبها بوَليلي (Euzennat, 1976). كما أن انتشار المسيحية بكثرة في المجال البوني الأفريقي ونوميديا (مبكر، 2001)، ساهم أيضا في انتشار اللغة اللاتينية بهذه المناطق، بينما لا نملك إلا معطيات جد قليلة عن وضعية المسيحية بالمغرب القديم.

أما ما نسميه اليوم بالتنوع الثقافي، فلا يمكن أن نعرف، بكثير من التفصيل، حجمه وامتداداته ومجالاته في المغرب القديم، لأن المعطيات المتوفرة حاليا لا تسمح بذلك. فإذا انطلقنا من الرأي القائل بأن الأساس الحضاري الليبي (أي الأمازيغي القديم) هو الذي تفاعل مع المؤثرات الحضارية الخارجية التي انصهرت في خصوصيات هذا الأساس المحلي (Peyras, 1995 : 216)، فإن التنوع الحضاري، وبالتالي التنوع الثقافي، بالمغرب القديم يجب أن لا ننظر إليه من الزاوية التي تعطي الأولوية، في تشكيله، للروافد الحضارية الخارجية وتجعلها هي المؤسِّسَة والفاعلة، بينما دور المحلين كان ثانويا أو هامشيا[3].

بهذا المنظور، يمكن القول إن البعد الأمازيغي كان هو الطاغي في المشهد الحضاري، الذي يصعب فصله عن الثقافي بالمغرب القديم. ومع أن منطق التاريخ يفرض الغلبة لثقافة الساكنة المهيمنة بمجال معين، كما هو حال أمازيغ المغرب القديم، إلا أننا سنقف عند بعض الأدلة التي ترجح هذا الرأي.

أولها أن كل ملوك مملكة المغرب القديم المعروفة أسماؤهم، باستثناء بطليموس، سموا بأسماء أمازيغية، مما قد يعني أن أعلى الهرم الاجتماعي- وهو الذي عادة يكون في مقدمة الفئات التي تتأثر بالمؤثرات الخارجية- تمسك بأسماء أصيلة في ثقافته.

[3] نود أن نسجل في هذا الإطار أنه بمناسبة انعقاد الأيام الوطنية حول خمسين سنة من البحث التاريخي - من طرف الجمعية المغربية للبحث التاريخي أيام 7-8 دجنبر 2007 بالرباط-لاحظنا أن هناك شبه إجماع المشاركين في ورشة ماقبل التاريخ والتاريخ القديم حول ضرورة القيام بمقاربة علمية للأطروحات التي تغيب دور المحليين في صنع حضارة المغرب القديم، بل وتمت الدعوة إلى التفكير في بلورة تحقيب جديد لتاريخنا القديم، لأن التحقيب المعمول به حاليا يهمش دور المحليين (أمازيغ المغرب القديم) ويعكس فقط النظرة الدونية إليهم.

ثاني هذه الأدلة أن جل مدن المغرب القديم لها أسماء أمازيغية (غازي، 2006 : 76-77) مع العلم أنها كانت نقط التفاعل بامتياز بين المحليين والوافدين على مجالهم. ومن هذه الأدلة أيضا العثور على نقائش مكتوبة بالأمازيغية ببعض مدن المغرب القديم (Galand, 1966). وقد يفهم من هذا أن الكتابة الأمازيغية، التي تعرضت داخل المناطق المتوسطية من المجال الأمازيغي القديم لتأثير قوي من الكتابات الأجنبية، ظلت مستعملة بهذه المناطق إلى فترات متأخرة.

وعموما، إذا كان تفاعل أمازيغ المغرب القديم مع العالم المتوسطي القديم يجعل إثارة موضوع التنوع اللغوي والثقافي بالمغرب القديم أمرا مقبولا، فإن الخلاصات التي تسمح بها المعطيات الحالية حول حجم هذا التنوع ومجالاته وامتداداته تستلزم الكثير من الحذر.

II - التنوع الثقافي واللغوي بمغرب العصر الوسيط

ورث مغرب العصر الوسيط عن العصر القديم انفتاحه على التيارات الثقافية المتوسطية، لكن تميز هذا العصر بانتشار الإسلام، ومعه اللغة العربية، مما أضفى دينامية جديدة على واقع التعدد اللغوي والثقافي بالمجال المغربي، شأنه في ذلك شأن باقي مناطق شمال أفريقيا.

لقد استطاع الموروث الحضاري الأمازيغي، بجميع تجلياته والضارب في جذور التاريخ منذ أقدم العصور، أن يتفاعل ويستوعب المؤثرات الثقافية الجديدة، كما فعل من قبل مع المؤثرات الفينيقية والرومانية وغيرها. نهل المغرب من هذه الحضارات المتوسطية كما نهلت منه، فكوَّن بذلك بوتقة حضارية متوسطية، منفتحة على التأثيرات الآتية من الشرق والجنوب، فتلقى من الشرق تأثيرات الحضارة اليهودية والعربية والتركية.

كما أن للحضارة المغربية المتوسطية بعد صحراوي إفريقي، امتدت إليه جذور المغرب لتعل من خصوصياته. فرغم الامتداد الكبير للصحاري القاحلة جنوب المغرب، فإنها –على عكس ما يعتقد- شكلت مجالا للتواصل بين المغرب وأفريقيا الغربية (السودان)، خاصة مع دخول الجمل إلى المجال الصحراوي، كوسيلة للتنقل منذ حوالي القرن الثاني قبل الميلاد. وتعزز البعد الصحراوي في الثقافة والهوية المغربيتين بتوافد عناصر بشرية متعددة خلال الفترة الوسيطية، واندماجها في المجتمع المغربي بحمولتها الثقافية التي أثرت وأغنت تعددية الثقافة واللغة المغربيتين، إذ تكفي الإشارة إلى الموسيقى الروحية الگناوية، التي أضحت مغربية بامتياز.

لكن البعد الذي نجح في التأثير كثيرا على البعد الأمازيغي الأصلي، منذ العصر الوسيط، هو البعد العربي الذي ارتبط بالإسلام، ودخل إلى المغرب خلال هذه المرحلة. واقتران اللغة العربية بالقرآن جعلها لغة الدين الإسلامي، وأكسبها القداسة التي أعطيت له، ومن هنا بدأت تزداد أهميتها في مجال التدوين، خاصة بعد القرن 1 هـ/7 م. (العلوي القاسمي، 1995: 219)، بينما ركنت اللغة الأمازيغية أكثر إلى الشفوية والتواتر اليومي المعيشي.

يتميز المغرب بموقع استراتيجي، نظرا لانفتاحه على واجهتين بحريتين، وقربه من أوربا شمالا، إذ يعتبر أقرب نقطة إليها، وينفتح جنوبا على الصحراء وشرقا على المشرق العربي والتركي. فقد تفاعلت فوق الأرض المغربية الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، مع أعراف دينية قديمة موروثة عن تاريخها العريق، وأثر ذلك في العقلية ونظام الحياة الاجتماعية، وطبعت المجتمع المغربي بديناميكية مستمرة، أعطته قابلية التغير وباستمرار. (العلوي، القاسمي، 1995: 214).

فإذا كان العنصر البشري هو الفاعل الأساسي في التنوع الثقافي واللغوي، فمن البديهي البحث عن مكوناته ومظاهر تنوعه خلال العصر الوسيط. إن جل الدراسات التاريخية أثبتت أن المكون الأمازيغي هو الأقدم، ومحدده الأساسي هو اللغة، التي كانت مختلفة عن اللغات المستعملة من قِبل باقي شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط، وهذا التمايز اللغوي، جعل الإغريق يسمونهم بالبربر (بمعنى الذين لا يتكلمون اليونانية)، ونقلها عنهم البيزنطيون ثم العرب.

وتميز الأمازيغ بتعدد قبائلهم، والتي من أهمها: أوربة، أوريغة، هوارة، صنهاجة، كتامة، مصمودة، وزناتة. وأيضا بتعدد أنماط عيشهم التي قسمها ابن خلدون إلى نمطي البدو والحضر (ابن خلدون، بدون تاريخ: 165-166)، وتطورت بعد ذلك لتشمل حياة البداوة المرتبطة بالقبائل، والفلاحة المرتبطة بالقرى، والحضارة المرتكزة بالمدن.

إلى جانب الأمازيغ، نجد عناصر أخرى ناتجة عن التواصل البشري الذي ميز العصر الوسيط، وأغنى المغرب إثنيا ولغويا وثقافيا، ومنها:

الأفارقة: هم أصلا من الأمازيغ الذين اختلطوا مع الروم، ودخلوا في خدمتهم، أومن الأجانب الروم، أعقاب الجيش والموظفين البيزنطيين وغيرهم، الذين طال تواجدهم في المغرب حتى تطبعوا، فكانت لهم لغتهم الخاصة، ويسكنون الحواضر، وقد اعتنقوا الإسلام للمحافظة على مكانتهم الاجتماعية، (محمود إسماعيل، 1985: 49-50).

عرف المغرب أيضا، إضافة للسود الأصليين والمعروفين بالإثيوبيين أو الحراطين، توافد عدد من ***السود*** أو ***العبيد*** ، وتعود علاقتهم بالمغرب إلى كونهم أصلاء بالمغرب أو تمّ استقدامهم واستخدامهم في الأشغال الخاصة، وأنشطة الفلاحة، من زراعة ورعي، وحراسة. كما أدخلوا قسرا في التجارة الدولية الرابطة بين الصحراء والبحر الأبيض المتوسط، ناصروا حركة الخوارج في المغرب، وأسهموا في قيام دولة بني مدرار في سجلماسة (محمود إسماعيل، 1985: 113).

العرب: ارتبط وجود العنصر العربي بالفتوحات الإسلامية، غير أن الأبحاث تكاد تجمع على أن أعداد الوافدين كان محدودا في بداية الأمر، وارتبط أساسا بحركة العبور إلى الأندلس، كما يستشف من قول ابن عذاري: "..*لما تسامع الناس من أهل بر العدوة (المغرب) بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرق البحر على ما قدروا عليه من مركب وقشر ولحقوا بطارق...*" (ابن عذاري، 1980: 25). وتوالى دخول العناصر العربية بشكل محدود طيلة القرون الخمسة الأولى للهجرة، وتركز وجودها في المدن وضواحيها، وساهمت بذلك في تعريبها دون البوادي، (العلوي القاسمي، 1995: 318). وعرف القرن 6 هـ/12 م، أكبر عملية ترحيل أو تهجير للقبائل العربية، في اتجاه المغرب الأقصى، باستقدام قبائل بني هلال وبني معقل من قِبل الموحدين.

اليهود: يمكن التمييز بين موجتين من الهجرات اليهودية إلى المغرب: يهود الشرق الذين دخلوا إلى المغرب منذ العصر القديم، ويهود الغرب الذي كانوا بشبه الجزيرة الإيبيرية، وعادوا منها إلى المغرب إثر موجة الطرد التي مستهم مع المسلمين بعد سقوط غرناطة سنة 1492م. كان تأثيرهم قويا في المجال الاقتصادي، واختلفت أوضاعهم من دولة لأخرى، إذ كانت متميزة خلال العصر المريني، مقارنة مع العصر الموحدي، حيث تقلد أحدهم منصب الحجابة، وأثروا في الحياة السياسية والاقتصادية (الدفالي، 1999).

وقد شكلت العناصر الخمسة، المشار إليها أعلاه، وغيرها (كالأندلسيين) نموذجا للتلاقح والتلاحم والتعايش والاندماج، الذي أنتج الإنسان المغربي بمفهومه التاريخي الاستمراري، فهو يستمد هويته من الأرض المغربية بصحرائها وجبالها وسهولها وأنهارها وهضابها ومن تنوع مكوناته البشرية (العلوي القاسمي، 1995 : 298).

لقد ساهم هذا التنوع البشري في التعدد اللغوي والثقافي بالمغرب، فالعربية مثلا تلاقحت وتواردت مع الأمازيغية، وأنتجتا الدارجة المغربية، التي تجمع بين كلمات عربية وأمازيغية من جهة، وبين كلمات عربية، ولكن بقوالب ومعاني ثقافية

أمازيغية من جهة أخرى. وبدخول الإسلام إلى المغرب، ظهرت ترجمة واسعة للمبادئ والشرائع الإسلامية، من العربية إلى الأمازيغية، سواء مع البرغواطيين أو مع الموحدين. ونجح محمد بن تومرت في توظيف الموروث الثقافي الأمازيغي في صلب مشروعه العقدي، وحافظ على الإسلام السني بمبادئه، مكتفيا بترجمته إلى اللغة الأمازيغية، وإنجاز الترجمة في حد ذاته عمل ثوري، (بولقطيب، 1990)، فهو إعلان ضمني بصلاحيته، كما هو إعلان على أهمية العنصر الأمازيغي وضرورة استيعابه العقيدة الواردة باللغة العربية، ومن ثم كان يشترط في الخطباء والوعاظ إتقان اللسانين الأمازيغي والعربي.

إن هذا التلاقح بين مختلف المكونات، لم يمنع من استمرار اللغة الأمازيغية في المغرب، خلال مختلف العصور التاريخية، رغم وجود اللغة العربية التي ارتبطت بالإسلام، لأنها بقيت لغة التعامل اليومي، بل إن العديد من المجموعات العربية "تمزّغت"، أو أدخلت نماذج من السلوكيات الثقافية الأمازيغية. أما العربية الفصحى فقد وجدت في المغرب التربة الخصبة، لتنتشر كلغة للتدريس، وقد أبدع الأمازيغ المغاربة في طرق تعليمها، والتي اعتمدت أساسا النظم الشعري لقواعدها، معززة بالأمثلة التطبيقية.

وأدمجت العربية والأمازيغية كلمات أوروبية وتركية نتيجة للتفاعل الحضاري معها، فيكفي أن نشير إلى المفهوم الإداري التركي *"الإيالة"* الذي أطلقه العثمانيون على الأقاليم أو الولايات التابعة لهم، وأصبح مع السعديين ثم العلويين يطلق على الدولة المغربية (الإيالة الشريفة). ورافق الاحتلال الإيبيري للسواحل المغربية خلال القرنين 15 و16 م، دخول عدة كلمات إسبانية إلى الدارجة المغربية، بينما استمرت العبرية كوسيلة للتواصل لدى اليهود المغاربة.

ومن مظاهر التعدد الثقافي بالمغرب الوسيط : التعدد الديني، حيث إن انتشار الإسلام بمذاهبه المختلفة والمتعددة وتوسعه، لم يحل دون استمرار الديانات السماوية الأخرى لدى معتنقيها، وخاصة اليهودية. فهذا التعدد الثقافي تجاوز المجالات اللغوية والدينية إلى التنوع في ميدان المعمار، حيث امتزجت الخصوصيات المغربية بالعربية والأفريقية والإسبانية، فأعطت معمارا فريدا ومتنوعا حسب المؤثرات والأقاليم، ومن جملته الطراز المغربي الأندلسي. (وزيري، 2004).

وقد تميز المغرب بتنوعه المجالي، الذي نتج عنه تنوع ثقافي مرتبط بتكيف الإنسان مع بيئته، إذ نجد الثقافة المرتبطة بالأوساط الجبلية وبأنشطتها الاقتصادية، وثقافات البيئة الصحراوية، أو السهلية، أو الساحلية، وما يقترن بكل واحدة من أنشطة

اقتصادية واجتماعية، وما تراكمه من خبرات في التكيف، والتطويع لمعطيات البيئة الطبيعية.

هكذا إذن كان مغرب العصر الوسيط مسرحا تتلاقح فيه مكونات بشرية متعددة ومتنوعة، مما أعطاه شخصية فريدة وخاصة، من مميزاتها التعدد اللغوي والثقافي. وعزز انفتاح المغرب خلال العصور الحديثة رسوخ هذه الشخصية وهذا التعدد اللغوي والثقافي.

III - جوانب من التحولات اللغوية والثقافية خلال الفترة الحديثة والمعاصرة

تميزت الفترة الحديثة من تاريخ المغرب بتوافد عناصر أخرى أهمها المورسكيون بالأندلس. فقد عملت الدولة الإسبانية على تهجيرهم وطردهم نهائيا من شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث قام فيليب الثالث، ابتداء من سنة 609 م، بطرد عدد كبير منهم، كما يبين ذلك نص أورده ابن تاويت: "*...إن الدولة الإسبانية منهمكة حاليا في التزود بالسفن القاصدة إلى أندلسيا بقصد نقل (المورسكيين) إلى بلاد البربر، بسبب تمهيدهم السبيل لعظيم الترك إلى هذه المملكة مما قد اكتشف أخيرا. وقد حكم عليهم حكما عاما بأن يطردوا من كلتا مملكة إسبانيا ومملكة البرتغال، وأن تنزع منهم أراضيهم وأمتعتهم...*" (ابن تاويت، 1962: 97).

وقد توزعت أعدادهم على مجموع المغرب الكبير، وقصد العديد منهم مدن المغرب الأقصى، خاصة تطوان وفاس وسلا والرباط. وكان لهجرة هؤلاء إلى المدن المذكورة الأثر البالغ على الجانبين اللغوي والثقافي، حيث نقلوا معهم إرثهم الحضاري، واستمر اليهود -منهم على الخصوص- في استعمال الإسبانية كلغة للتواصل.

وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان لاحتلال الإسبان والبرتغال لعدة مدن على الساحلين المتوسطي والأطلسي بالغ الأثر. فبعد احتلال سبتة ومليلية، هاجموا الشواطئ المغربية وأسسوا بها مراكز في كل من طنجة وأصيلا والعرائش والمعمورة وأنفا وأزمور وأسفي وأگادير. وكانت هذه المستعمرات عبارة عن حصون عسكرية ومراكز تجارية تتم عن طريقها المبادلات بين الأجانب وسكان المناطق المجاورة من المغاربة. واستمر هذا الاحتلال مدة طويلة.

وتميزت الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى حدود النصف الأول من القرن التاسع عشر بحدوث تحولات مجالية أثرت على واقع الخريطة اللغوية بالمغرب. فقد تحركت العديد من القبائل في اتجاهات مختلفة وغيرت من مواقعها، كما هو الحال بالنسبة لقبائل صنهاجة التي تحركت من الأطلس الكبير الشرقي في اتجاه السهول خاصة الساحلية. فاستقر كل من زمور وگروان وزيان بموقعهم

الحالي، وصعد آيت عطا في اتجاه واحات تافيلالت ودرعة، وتقدمت قبائل جبالة في اتجاه الشمال الغربي، كما تقدم بنو حسن –أمام ضغط كل من زمور وگروان- في اتجاه سهل الغرب، واضطر زعير للتحرك نحو الساحل فاسحين المجال لاستقرار زيان بموقعهم الحالي بالأطلس المتوسط، كما نزلت قبائل مصمودة من الأطلس الكبير في اتجاه حوز مراكش.

وبذلك تكون هذه الفترة قد اتسمت بسيادة الثقافتين الأمازيغية والعربية داخل المجتمع المغربي، رغم ما تسرب إليهما من التأثيرات الإسبانية والبرتغالية. يضاف إلى ذلك تواجد عدد من السود الأصلاء والأفارقة الذين قدموا من السودان مع حملة أحمد المنصور السعدي للعمل خصوصا بمعامل السكر التي أنشأها السلطان المذكور، حيث ساهموا في إغناء التنوع الثقافي واللغوي. كما تجدر الإشارة أيضا إلى الدور الذي لعبه اليهود في إغناء هذا التعدد، فمنهم من كانت له جذور عريقة في المغرب، وكان يتحدث إما بلغة أهل البلد أو بالعبرية، ومنهم من استوطنه حديثا هروبا من الاضطهاد المسيحي في إسبانيا، وتحدث لغة عربية ممزوجة بالإسبانية، حيث إن مظاهر الائتلاف لا تخفي مظاهر التعدد والاختلاف (بوطالب، 2006 : 23).

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبحت البلاد معرضة لتأثيرات خارجية في جميع المجالات. فالاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م حتّم على المغرب نوعا من التعامل مع الوضع الجديد (Brignon, et al : 284). وأدت المعاهدات الموقعة مع كل من بريطانيا سنة 1856م، وإسبانيا سنتي 1860-1861م، وفرنسا سنة 1863م، بالإضافة إلى نتائج مؤتمر مدريد سنة 1880م إلى تزايد عدد الأجانب بالبلاد. كما تزايد عدد المحميين والمخالطين والسماسرة الذين كان لهم ارتباط بالأجانب (Miege, 1963). بالإضافة إلى ذلك، أوفدت الدولة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجموعة من الشبان المغاربة إلى بعض الأقطار الأوربية للتعلم والتشبع بالتقنيات العصرية في شتى الميادين (الشابي، 1995).

شكل القرن العشرين منعطفا كبيرا في تاريخ المغرب، حيث شهدت كل الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية تحولات كبيرة. لقد كان المجتمع المغربي في بداية القرن يبدو على شكل كتلة كثيفة من القبائل، يمتد مجالها من أقصى ضفاف نهري النيجر والسنغال إلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط، ومن واحات توات وتيدكلت إلى شواطئ المحيط الأطلسي، وكانت الأغلبية الساحقة من سكان البلاد تقطن البادية (بوطالب، 2006 :22).

فرضت فرنسا حمايتها على البلاد في 30 مارس 1912م، واتفقت مع إسبانيا بموجب معاهدة 27 نونبر 1912م على أن تحتل هذه الأخيرة القسمين الشمالي والجنوبي، الأمر الذي أدى إلى حدوث تحولات في الحياة اللغوية والثقافية للبلاد. ذلك ما تجسد في مظاهر مرتبطة بالسياسة التي اتبعها الاستعمار في مجال التعليم على الخصوص، حيث كان جهاز الحماية في حاجة إلى مترجمين، ولذلك أنشأ سنة 1912 "مدرسة عليا للغة العربية واللهجات البربرية" تحولت سنة 1921م إلى "معهد للدراسات المغربية العليا". وكان عليه أن يستجيب للمتطلبات التعليمية لأبناء المعمرين الأوربيين، وهم كثيرون، لذلك أنشأ سنة 1912م مصلحة للتعليم ستتطور فيما بعد إلى "مديرية للتعليم العمومي". وكان أيضا في حاجة إلى أعوان ووسطاء مغاربة يساعدونه على غرس وتوطيد النظام الجديد، ولذلك خلق "مصلحة التعليم الفرنسي الإسلامي" التي أسند إليها مهمة إعداد هؤلاء الأعوان والوسطاء (المروني، 1996 :15).

وبذلك، فإن إدخال التعليم الاستعماري كان له الأثر العميق على المجال التربوي بالمغرب، إذ أصبح العديد من المغاربة مقتنعين بضرورة تعلم اللغات الأجنبية للتأقلم مع الوضع الجديد. وهذا ما عبر عنه محمد بن الحسن الحجوي، وزير المعارف سنة 1921 بقوله: "...*لايتيسر ترقية التجارة والفلاحة والصناعة إلا بمعرفة لغة أجنبية فلا سبيل إلى هذه العلوم التي هي المقصود بالرقي والتمدن، إلا بمعرفة اللغة الأجنبية*..." (الحجوي، 1921). كما نجد الوزير عبد الله الفاسي يولي أهمية كبيرة للغة الفرنسية حيث يقول: "...*ويكفي عنوانا على رفعة قدر هذه اللغة أنها لسان السياسة وعليها المدار عندهم والمعول*..." (اليزيدي، 2006 :455). ذلك أن الأعيان المغاربة ارتأوا أن مصلحة أطفالهم ومستقبلهم مرتبط بشكل وطيد بالتكوين والشهادات التي تمنحها المدارس الفرنسية، مع ما يحمله ذلك من الانبهار بثقافة المستعمر، وتوفير سبل الحصول على مناصب عليا داخل البلاد.

كما عملت فرنسا على إنشاء بعض "المدارس البربرية" على مستوى الابتدائي، ثم تطور الأمر إلى إحداث ثانوية أزرو سنة 1930، (حسن كمال، 2002: 420-406). وكان الهدف الأساسي منها مواجهة تأثير المدارس القرآنية. غير أن هذه التجربة فشلت لأنها عملت بشكل عام على توجيه الأمازيغ نحو التعليم الفرنسي، ولم تعتمد اللغة الأمازيغية في التدريس (اليزيدي، 2005: 459).

والتأثير نفسه مورس من طرف إسبانيا في شمال المغرب وجنوبه، الأمر الذي أدى إلى انتشار اللغة الإسبانية، ولو بشكل محدود، في هذه المناطق. وساهم في إغناء التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب ظهور صحف ومجلات ناطقة باللغتين الفرنسية

والإسبانية، بالإضافة إلى الصحف العربية، بينما تقلص دور الأمازيغية في الدوائر الرسمية.

وبعد حصول المغرب على الاستقلال سنة 1956 أصبح الجو الثقافي واللغوي مخالفا تماما لما كان عليه الأمر سنة 1912. لقد كان المغرب في مطلع القرن العشرين يعرف سيادة الثقافتين الأمازيغية والعربية، مع طغيان الأمازيغية كلغة شفوية والعربية كلغة كتابية. وبعد الاستقلال انتشرت الفرنسية داخل هياكل الإدارة المغربية، وساعد على ذلك طبيعة التكوين الذي فرضته فرنسا على المغاربة خلال فترة الحماية. هذا في الوقت الذي تقلص فيه مجال الإسبانية بشكل كبير بعد استرجاع المناطق التي كانت محتلة من طرف الإسبان. (بوكوس، 1982 : 27).

ويمكن القول إن فترة ما بعد الاستقلال اتسمت باستعمال الأمازيغية والدارجة المغربية كلغتين للتواصل على المستوى الوطني. وفي الوقت الذي تم فيه تهميش اللغة الأمازيغية، ترقت العربية الفصحى لتصبح اللغة الرسمية للبلاد، واللغات الفرنسية والإسبانية والأنجليزية كلغات الاقتصاد والعلم. وساهمت سياسة التعريب وإقصاء الأمازيغية من التعليم إلى تقليص مجالاتها وتعريب الناطقين بها، خاصة الأطفال.

مع تنامي الوعي بأهمية الأمازيغية كرافد من روافد التنمية وترسيخ الهوية الوطنية، عاد الاهتمام بالثقافة الأمازيغية. وقد كان لإنشاء المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية سنة 2001 فضل كبير في هذا الشأن.

خاتمة

يظهر من خلال تتبع الخطوط العريضة للمشهد الثقافي واللغوي بالمغرب القديم والوسيط ثم الحديث فالمعاصر، أن البعد الأمازيغي، الذي شكل اللبنة الأساسية لهذا المشهد، ظل يتفاعل مع التيارات الثقافية التي كان الحوض المتوسطي مسرحا لها. ذلك ما تجسد في تفاعله، بدرجات متفاوتة، مع مؤثرات خارجية حملتها معها العناصر الوافدة: الفينيقيون والرومان والوندال والبيزنطيون، ثم العرب والأفارقة واليهود والمورسكيون والبرتغال والفرنسيون والإسبان. وهكذا فالطابع التعددي معطى يميز تاريخ المغرب؛ إذ تشكل على أرضه، عبر القرون، تنوع ثقافي ولغوي أخصبته حمولات حضارية مختلفة. ومع ذلك، فقد ظلت الثقافة الأمازيغية رافدا أساسيا وأصيلا داخل المجتمع المغربي، لم ينل هذا التعدد من مكانتها.

بيبلوغرافيا

ابن تاويت، محمد، (1962)، « ترجمة رسالة بعث بها قنصل إنجلترا بلشبونة إلى أحد الدبلوماسيين الأنجليز » ، مجلة *تطوان*، العدد 7، ص 97.

ابن خلدون، عبد الرحمان، *المقدمة*، (بدون تاريخ)، دار الجيل، بيروت.

ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي، (1980)، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، الجزء الأول، بيروت، دار الثقافة.

إسماعيل، محمود عبد الرزاق، (1985)، *الخوارج في بلاد المغرب، حتى منتصف القرن الرابع الهجري*، الدار البيضاء، دار الثقافة، الطبعة الثانية.

بوطالب، إبراهيم، (2006)، «مغرب القرن العشرين»، ضمن ملتقيات التاريخ، الرباط 30 مارس- 1 أبريل، *المغرب الكبير المعاصر، ثوابت وتحولات*، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص 21-54.

بوكوس، أحمد، (1982)، « اللغة والثقافة الشعبية كممتلكات رمزية »، مجلة *آفاق*، يصدرها اتحاد كتاب المغرب، العدد 9، ص 26-29.

بولقطيب، الحسين، (1990)، « أسس ومكونات الدولة المغربية في العصر الوسيط، الدولة الموحدية نموذجا » ، *أبحاث*، عدد 24-25، ص 59.

الحجوي، محمد بن الحسن، (1921)، «*محاضرة في إصلاح التعليم العربي* »، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم : ح 152.

الدفالي، محمد معروف، (1999)، « التاريخ والديموغرافيا »، في الأيام الوطنية السادسة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، *أمل*، العدد 16، *ص* 218-219.

حسن، كمال، (2002)، *مؤسسات التعليم والبحث بالمغرب خلال فترة الحماية*، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب بالرباط، مرقونة.

العلوي القاسمي، هاشم، (1995)، *مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي*، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الجزء الأول.

غازي، حليمة- بن ميس، (2006)، « آثار الفينيقيين والقرطاجيين بمملكة المغرب القديم بين البحث عن الواقع والجري وراء السراب »، *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط*، العدد 26، ص. 69-90.

الشابي، مصطفى، (1996)، *النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر*، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 26، الرباط.

مبكر، محمد، (2001)، *شمال أفريقيا القديم، حركة الدوارين وعلاقتها بالدوناتية، 429م*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 52، الرباط.

المروني، المكي، (1996)، *الإصلاح التعليمي بالمغرب، 1956-1994*، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 17.

وزيري، يحيى، (2004)، « العمارة الإسلامية والبيئة » ، *عالم المعرفة*، عدد 304، ص 67 -68.

اليزيدي، محمد، (2005)، « مقاومة المغاربة للمد اللغوي والثقافي الفرنسي »، ضمن *ندوة المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات*، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ج1، ص 443-471.

Amadasi Guzzo, M. G. (1992), « Note sur les graffitis phéniciens de Mogador, dans Lixus », *in Actes du colloque international de Larache, 8-11 novembre 1989*, CEFR n° 166, Rome, p. 155-173.

Benabou, M. (1976), *La résistance africaine à la romanisation*, Paris, Maspéro.

Brignon, J. et *al.* (1967*), Histoire du Maroc*, Casablanca, Hatier.

Chamoux, F. (1953), *Cyrène sous la monarchie des Battiades*, Paris.

Euzennat, M. (1971), « Grecs et orientaux en Maurétanie tingitane », *in Antiquités Africaines***,** 5, p. 161-178.

Galand, L. (1966), « Inscriptions Libyques », *in Inscriptions antiques du Maroc*, Paris, éd. CNRS.

Hannon, périple, dans Desanges, J. (1978), *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique (Ve s. av. J.-C.-Ive s. ap. J.-C.)*, CEFR n° 38, Rome.

Hérodote, *Histoires, Livre* IV, Texte Traduit par Legrand, P.E. (1949), Paris, éd. Les Belles-lettres.

Mazard, J. (1955), *Corpus Nummorum Numidia Mauretaniaeque*, Paris.

Miege, J. L. (1961-1963), *Le Maroc et l'Europe (1830-1894)*, PUF, Paris, 4 Tome.

Muller, L. (1862), *Numismatique de l'ancienne Afrique, t. III, les monnaies de la Numidie et de la Maurétanie*, Copenhague.

Peyras, J. (1995), « Les libyens et les autres : Réflexion sur la notion d'influences», *in L'homme méditerranéen, mélanges offertes à Gabriel Camps*, publications de l'université de Provence, Aix-en-provence, p 215-230.

Skounti, A. et *al (*2003), *Tirra, aux origines de l'écriture au Maroc,* publications de L'IRCAM, série : études et recherches n° 1, imp. Rabat, El Maarif Al Jadida.

Souville, G. (1998), « Contacts et échanges entre la péninsule Ibérique et le nord-ouest de l'Afrique durant les temps Préhistoriques et protohistoriques », *C.R.A.I*, Janv.-Mars, p. 163-17

مجلة أسيناگ- □□□□□□، العدد الأول – 2008، ص 31 - 48

بعض ملامح التفاعل بين اللغتين الليبية (الأمازيغية العتيقة) والبونية خلال الفترة القرطاجية

عبد اللطيف الركيگ
باحث في التاريخ القديم وعلم الآثار-الرباط

ملخص

يندرج هذا المقال ضمن البحوث التي تروم إبراز بعض تجليات التفاعل اللغوي الذي حدث بين لغة الأمازيغ بشمال أفريقيا القديم ولغات الشعوب الوافدة على المنطقة. لقد أسفر اتصال الفينيقيين بسكان المنطقة وتأسيس قرطاج عند نهاية القرن 9 ق.م عن قيام علاقات لغوية متبادلة بين لغة المحليين ولغة المهاجرين الفينيقيين. و تبرز أهمية دراسة التطورات التي لحقت المعطيات اللغوية بالبلاد الأفريقية في الفترة القرطاجية من خلال رصد جوانب التأثير والتأثر التي تجلت –بالخصوص- في اللغة الأم للسكان الأمازيغ بالجزء الشرقي لشمال أفريقيا القديم. ويبحث هذا المقال في المجال الجغرافي والإطار الكرونولوجي لانتشار اللغتين البونية والليبية، كما يعالج العلاقات اللغوية التي نشأت بينهما على مستوى المعجم من خلال مقارنة ألفاظ اللغتين، ورصد التأثيرات المتبادلة بينهما.

تقديم

تمثل اللغة إحدى أبرز تجليات الحضارة التي بلورها الأمازيغ بشمال أفريقيا القديم، باعتبارها الوعاء الذي يكتنز مجموع الأفكار والمقولات والخبرات المادية وغير المادية التي راكمتها الساكنة على مدى حقب زمنية طويلة. لقد أدخل الفينيقيون –بالطبع- لغتهم إلى البلاد الأفريقية التي استقروا بها، وخصوصا بالجزء الشرقي لشمال أفريقيا. ونرى أن وظيفة الدراسات التاريخية واللسانية ينبغي أن تنصب على البحث في المعطى اللغوي المحلي من خلال رصد أهم ملامح التفاعل الذي حصل بين لغة السكان الأصليين واللغة التي أدخلها الفينيقيون، واستعملها القرطاجيون.

1 التجاور بين اللغتين واستقلالهما عن بعضهما البعض

انتشرت اللغة البونية في عدد من مناطق شمال أفريقيا كما يتضح من انتشار النقائش المدونة بتلك اللغة بعدة مواقع بالمغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا[1]. بيد أن أهم البقايا عثر عليها بالمجال المباشر للسيطرة القرطاجية[2]. فقد تركزت بصفة عامة في قرطاج، وأوتيكا، وبعدة مواقع أخرى بالساحل الشرقي التونسي، ووسط وشمال غرب تونس، ومنطقة رأس بون. وهناك دلائل أخرى جهة الجنوب والشرق، وخصوصا بالجنوب الشرقي الصحراوي التونسي تطاوين (فنطر، 1999:5-4)، وبمواقع بالساحل الليبي (Levi Della Vida, 1966-1967: 9).

بادر كسيل (Gsell, S) إلى افتراض استعمال كل أفارقة المجال البوني الأفريقي للغة البونية في الميادين الإدارية والاقتصادية والعسكرية حتى ولو لم يتعلموها في المدارس (Gsell, 1929:108). بينما خلص باحثون آخرون من استقراء توزيع النقائش إلى اعتبار البونية ظاهرة حضرية (Ghaki, 1979: 90).

ودافع غاقي Ghaki, M عن تلك الخلاصة دون أن ينفي تداول البونية بالمجال الريفي. فقد فسر الباحث عدم العثور على نقائش بونية بذلك المجال بإكراهات اقتصادية متمثلة في ارتفاع أتعاب الكتبة والنقاشين مقابل تواضع إمكانيات هؤلاء السكان (Ghaki, 1979: 90). إلا أن غياب آثار مادية بالمجال الريفي له معنى حتى ولو لم تكن هناك علاقة بين استعمال الكتابة وتداول اللغة. فمن الممكن تفسير انعدام النقائش ببطء تأثير اللغة البونية نحو داخل البلاد. ففي مقابل انتشارها بالسواحل والسهول، بقيت بعض المناطق لا سميا المناطق الجبلية بمعزل عن تلك الدينامية اللغوية بالنظر لاستمرار التقاليد اللغوية والحضارية الأصلية للسكان (Mercier, 200 :1924). فهل حافظ الأمازيغ في المدن والأرياف التي استقروا بها على لغتهم الأم أم تخلوا عنها بسبب تأثير اللغة البونية؟

إذا كان غياب النقائش البونية في عدة مناطق من المجال البوني الأفريقي قد يفسر بتمسك السكان بلغتهم الأصلية، فإن الاستناد فقط إلى توزيع النقائش قد يعطي

---

[1] تكثر النقائش- خارج المجال البوني الأفريقي - بشرق الجزائر (گُلْمَة وقسنطينة)، أي بمجال الممالك النوميدية، في حين تقل كلما اتجهنا غربا، أي نحو المغرب.

[2] يتعلق الأمر بما نسميه المجال البوني الأفريقي الذي يشمل المناطق الأفريقية التي خضعت للسيطرة القرطاجية المباشرة. ويمتد هذا النطاق حسب الدراسة التي أنجزناها بهذا الخصوص من هيبوريكيوس (عنابة) بشرق الجزائر إلى مذابح فيلان بالسرت الكبرى ضاما، باتجاه داخل الأراضي، جزءاً من البلاد النوميدية بوسط وغرب تونس، والشريط الساحلي الممتد بين السرت الصغرى والكبرى. راجع: عبد اللطيف الرگيگ ، 2007، ص.ص، 57-79

صورة غير دقيقة حول انتشار اللغة البونية ووضعية اللغة الليبية إزاءها[3]. ذلك أن النقائش تعكس اللغة الرسمية التي اعتمدتها الدولة واستعملت في تدوين الوثائق العامة كالتعريفات القربانية وقوائم التقدمات والأنصاب التذكارية والجنائزية والنذرية (Fevrier, 1984: 221).

عرفتنا النصوص القديمة باللغة المستعملة في الكتابات الأدبية مثل إشارة سالوست Salluste إلى الكتب البونية (Salluste, XVII, 8)، وتآليف المؤلف الزراعي ماغون Magon بنفس اللغة[4]، وحديث القدامى عن مكتبة قرطاج وما احتوته من تآليف. كما تكشف النقائش عن وجود كتبة مختصين في نقش الكتابات لفائدة العموم من خلال لقب **سفر** (ספר) بمعنى "كاتب" في نقائش قرطاج (CIS I, 240-242 ; 273 ; 277)، ولقب رئيس الكتبة **رب سفرم** (רבספרם) في نقائش الحفرة بالجزائر (Berthier et Charlier, 1955). ويبدو أن هؤلاء الكتبة قد احتكروا استعمال الكتابة واللغة الرسميتين في الأغراض المدنية، بينما اضطلع الكهنة بدور ما في الاستعمالات الدينية. والغالب على الظن أن استعمال اللغة المكتوبة لم يكن في متناول الجميع، وأن فئة قليلة من السكان هي التي تمكنت من تعلمها في "مدارس". وتبعا لذلك، فمن المنطقي أن يحافظ السكان الأمازيغ، خاصة بالمناطق التي لم ينتشر بها المهاجرون الفينيقيون، على لغة أجدادهم، أي اللغة الأمازيغية القديمة.

كما يفترض أن تنتشر لهجات وسيطة في المناطق التي عرفت اختلاطا بشريا. فهذا ما يمكن استخلاصه من بعض النصوص الأدبية. فقد أخبرنا سالوست بأن لغة سكان لبدة بساحل السرت قد تغيرت بفعل الاختلاط بين الفينيقيين والسكان الأمازيغ (Salluste, LXXVIII, 4). وأشار سيليوس إيطاليكوس Silius Italicus إلى قبائل أفريقية تتكلم لغتين (Silius Italicus, II, 56). بينما زعم بومبونيوس ميلا بأن عددا قليلا من سكان منطقة لبدة هم الذين حافظوا على لغتهم (Mercier, 1924: 200.) وهو الأمر الذي سايرته بعض الدراسات المعاصرة، فقد اعتبر مرسيي Mercier بأن المجال البوني الأفريقي عرف استمرار تداول اللغة الأمازيغية بموازاة نشوء لهجات محلية (Silius Italicus, II, 56) ، بالإضافة – طبعا- للغة البونية.

---

[3] يتعلق الأمر بمصطلح علمي أطلقه اللسانيون على اللغة الأمازيغية القديمة. ويسود استعمال مصطلح "ليبية" في معظم الدراسات المعاصرة مع ظهور قراءات جديدة للإسم كما ورد في النصوص الإغريقية. ففي تونس يستعمل الباحثون مصطلح "لوبية". أما في المغرب فقد اقترحت ذة. حليمة غازي (2006، ص. 69-90) تعويض المصطلحات المستعملة بمصطلح " ليبووية" طالما أن حرف(Y) الوارد في النصوص القديمة يقرأ في الكتابتين اليونانية واللاتينية بصوت (U). لمزيد من التفاصيل راجع ما كتبته الباحثة بهذا الخصوص.

[4] Varron, apud Pline l'ancien, *Histoire Naturelle*, III, 1 [1], citation de Bunnes G., 1983, p. 236

إذا كان التوزيع المجالي للمعطيات النقائشية يسمح بافتراض انتشار اللغة البونية، فإنه لا يكفي لمعرفة مدى اتساع استعمالها من طرف سكان المجال البوني الأفريقي؛ وبالتالي الحكم بأن استعمال البونية قد تم على حساب اللغة الأمازيغية التي يفترض استعمالها من طرف قسم من السكان الذين حافظوا على مقوماتهم الحضارية ولم يتأثروا كثيرا بقرطاج. خصوصا وأن لغة التداول اليومي في المناطق البعيدة عن المدن -والتي تعد منطقيا الأكثر انتشارا إذا ما قورنت باللغة المستعملة في الكتابة بالمدن- لا تترك في الغالب آثارا مادية يمكن أن تبرهن على أهمية استعمالها على خلاف اللغة المكتوبة.

يساعدنا البحث عن انتشار الكتابة الليبية بالمجال البوني الأفريقي على توفير بعض المعطيات حول استعمال اللغة الليبية القديمة بالمجال البوني، ومدى تزامنها مع اللغة البونية مع الأخذ بعين الاعتبار ملاحظاتنا السابقة بشأن مدى إفادة النقائش للتعريف باللغة المستعملة. استخلص الباحثان فنطر (فنطر، 1999 : 6) وغاقي (1999 وGhaki 1984) من خلال توزيع النقائش بأن اللغة الليبية لم تصمد أمام تقدم اللغة البونية في المجال الأفريقي إلا في المناطق التي لم يشملها التأثير الفينيقي ولاسيما في الجبال والفلوات. ويرى غاقي (Ghaki, 1984 : 94) أنه لم توجد آثار مادية لاستعمال اللغة والكتابة الليبية بالمجال القرطاجي طبعا حسب تصوره لنطاق ذلك المجال. ولذلك ميز، على ضوء توزيع النقائش الليبية والبونية، بين مجالين لغويين، واحد بوني يقع تحت سيطرة قرطاج، وآخر ليبووي خارج مجال نفوذها.

و صحيح أنه لم توجد لحد الآن نقائش ليبية بموقع قرطاج. كما تغيب آثار الكتابة الليبية بالسواحل التي خضعت لقرطاج وبالجزر القريبة منها، وبسهول الحوض الأسفل لمجردة وسليانة ومنطقة رأس بون. مما يعني أن آثار اللغة الليبية تنعدم بصفة عامة بمجال سيطرة قرطاج خلال الحرب البونية الثالثة (Ghaki, 1984 : 100). ولم يعثر على نقائش ليبية أو ليبية- بونية في المدن الكبرى الخاضعة لقرطاج مثل أوتيكا، وحضروميت[5]، ولمطة الكبرى، إلخ. وقد يفسر ذلك نظريا بسيطرة اللغة البونية كلغة رسمية. وتبعا لذلك ساد ميل قوي لدى الباحثين لجعل مجال استعمال الليبية محصورا في البلاد النوميدية والمورية (Ghaki, 1984:100).

لكن مقاربة جديدة أصبحت تفرض نفسها مع بروز معطيات في ميدان النقائش الليبية بالمجال المفترض لكلتا اللغتين. فقد اكتشفت خربشات ليبية بحانوت جبل المنكوب غير بعيد عن قرطاج، فضلا عن نقيشة مماثلة بعين الدراهم شمال تونس.

5 ينطق اسم المدينة، وهي سوسة الواقعة على الساحل الشرقي التونسي، قديما في النصوص اللاتينية بصيغة حضروميت (Hadrumetum). هذه الإفادة من نقاش شفوي مع ذة. حليمة غازي، أستاذة التعليم العالي بكلية الآداب بالرباط.

ولهذا يصعب الاستنتاج بناءً على المعطيات الحالية بأن هناك مجالا خاصا باللغة البونية، ويستحسن إعادة النظر في التقسيم المقترح من طرف غاقي لاعتبارات أخرى غير مرتبطة بوجود نقائش ليبية من عدمه. منها أن التمييز بين مجال خاص باللغة والكتابة البونية، يوافق مجال السيطرة القرطاجية من جهة، وبين مجال الكتابة واللغة الليبية، يطابق ممتلكات النوميديين غرب قرطاج من جهة أخرى، نابع من محاولة إيجاد علاقة بين مواقع انتشار الكتابة الليبية والحدود السياسية الناتجة عن نتائج الحرب البونية الثالثة من جانب، وبين تاريخ ذلك الحدث وتاريخ أقدم نقيشة ليبية- وهي نقيشة توگا Tougga المؤرخة بحوالي 139 ق.م- من جانب آخر، وكأن اللغة والكتابة لم تعرف طريقها إلى المجال النوميدي الذي كان تابعا لقرطاج (غرب تونس) إلا بعد سقوط قرطاج إثر الحرب البونية الثالثة. كما يبدو من الصعب في نظرنا- سيما على ضوء وجود سكان أصلاء بالمجال التابع لقرطاج وبهذه الأخيرة نفسها- أن نحدد اللغة المستعملة من خلال النقائش المكتوبة فقط.

إن اللغة السائدة -على الأرجح- خلال الفترة القديمة هي لغة التخاطب الشفوي لأن حظ الغالبية الساحقة في تعلم اللغة والكتابة في "المدارس" يبدو ضئيلا. ولذلك، فاستعمال اللغة الليبية من طرف السكان الأمازيغ بالمجال البوني أمر منطقي ولا يحتاج إلى أدلة. كما لا يجب على المختص أن يستبق نتائج الأبحاث المستقبلية فيلغي إمكانية العثور على نقائش ليبية، أو احتمال وجود نقائش لم تصل إلينا بسبب ضياعها أو عدم اكتشافها لحد الآن. فإذا انطلقنا فقط من تاريخ نقيشة توگاّ، نجد أنه لا معنى للاعتقاد بأن سكانها لم يتداولوا اللغة أو حتى الكتابة الليبية إلا بعد ضم مدينتهم من طرف الملوك النوميديين عقب الحرب البونية الثالثة.

يمكن البحث في التوزيع المجالي والإطار الكرونولوجي للنقائش الليبية بالمجال الإفريقي الذي كان خاضعا لقرطاج من أخذ فكرة عن أهمية اللغة الليبية القديمة في حياة سكان تلك المناطق. لقد تركزت النقائش التي عثر عليها لحد الآن على ذلك الجزء من المجال النوميدي الذي كان تابعا لقرطاج قبل أن يقتطعه النوميديون خلال الحرب البونية الثالثة. وهو المجال الذي يقع بغرب تونس، وخصوصا في الشمال الغربي للبلاد حيث آثارها في السهول والتلال التونسية وجنوب الظهر التونسي في مواقع توگاّ ومكثر ومغراوة وهنشير غياضة وتبرسق (Chabot, 1940 و96 : Ghaki, 1984)، وبمواقع أخرى بغرب تونس (1940 Chabot,) فضلا عن النقيشة التي اكتشفت في قابس بالساحل الشرقي التونسي (فنطر، 2002 : 11) كما توضح الخريطة.

أهم مواقع الآثار والنقائش الليبية بتونس

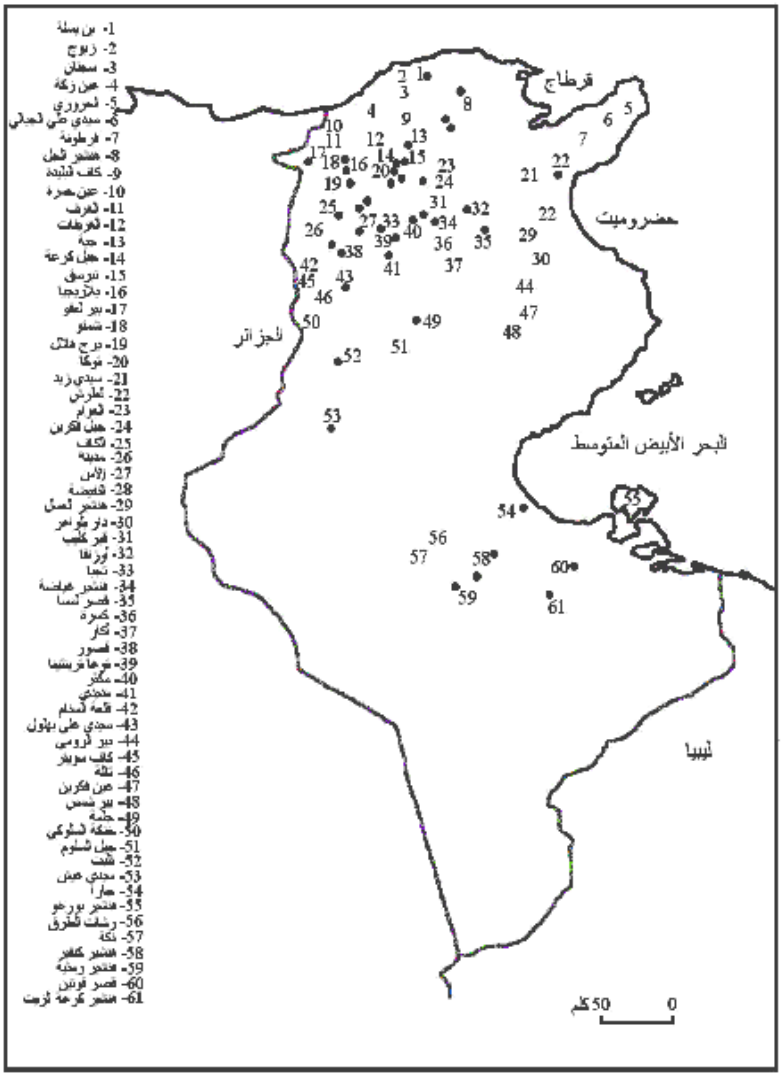

المصدر: بتصرف عن: CHAKI, M., 1995, "La répartition des inscriptions libyques...", p. 97

إلا أن الاهتمام بمجموع آثار الكتابة الليبية بتونس وليبيا يكشف عن وجود نقائش ليبية في مناطق أخرى من غير البلاد النوميدية التي أشرنا إليها سالفا، والذي صُنف كمجال للكتابة واللغة الليبية. ومن أمثلة ذلك نقائش وسط تونس (Chabot, 1940:52-54) غير بعيد عن قرطاج وكذلك نقائش جنوب البلاد (Chabot, 1940:58-70 و Poinssot, 1933:29) وبالساحل الليبي (Rebuffat, 1975 : 165).ورغم ضعف

أهمية الوثائق المذكورة من الناحية الكمية، فإن لها دلالة فيما يخص تداول اللغة الليبية القديمة في المجال الأفريقي الذي كان تابعا للدولة القرطاجية، وليس فقط البلاد الأفريقية التي اقتطعها النوميديون بعد الحرب البونية الأخيرة. بل نجد خربشات ليبية بمواقع لا تبعد كثيرا عن مدينة قرطاج كما يتضح من نقيشة حانوت المنكوب وسيدي محمد الأطرش برأس بون وحانوت عين الدراهم بمنطقة الخمير(Ghaki, (1984:194).

وعلى ضوء ما سلف، لا يبدو ممكنا الحديث عن تقسيمات مجالية تفصل بين مجال استعمال البونية والليبية القديمة، واستبعاد استعمال اللغة الأم بالنسبة لذلك العدد الكبير من الساكنة المحلية التي كانت قرطاج تراقب مجالها وذلك بمبرر قلة النقائش. فهذا الأمر يشمل أيضا معظم مناطق شمال أفريقيا بما فيها تلك التي لم تثبت تبعيتها لقرطاج. ذلك أن عدم العثور على النقائش بمجال معين لا يعني بالضرورة عدم استعمال لغة معينة به. فإذا قارنا مجال توزيع المدافن المنسوبة للسكان الأمازيغ بالمجال البوني الأفريقي بمجال توزيع الكتابة الليبية سنلاحظ تناقضات كثيرة تدعم ما خلصنا إليه. فقد وجدت آثار الكتابة الليبية في مناطق الصروح الميغاليتية بالتلال والسهول التونسية (توگاّ ومكثر والظهر التونسي عموما) حيث وجدت دلائل تأثير قرطاج. وعلى خلاف ذلك تنعدم آثارها في مجال الحوانيت (رأس بون مكود والخمير) باعتبارها قبورا محلية تقل فيها التأثيرات القرطاجية (Ghaki, 1984 :96). ويضاف لما سبق أن النقائش دونت في بعض مناطق المجال البوني الإفريقي باللغتين البونية والليبية في عدة مواقع من بينها توگاّ، وبرج هلال، ومكثر بوسط وغرب تونس (Ghaki, 1984 :105).

غير أن معرفة تجاور اللغتين والكتابتين يطرح إشكالا كرونولوجيا يرتبط بصعوبة إثبات تزامن استعمال اللغتين خلال الفترة البونية ما دام أن النقائش المشار إليها تؤرخ بفترات لاحقة لسقوط قرطاج (Fevrier, 1984:322). وإذا كان محتوى بعض النقائش قد ساعد على عملية التأريخ، فإن العثور على أخرى خارج أي سياق أثري مضبوط يجعل تأريخها قائما على افتراضات قابلة للنقاش. ومع ذلك، تقدم النقائش المزدوجة إفادات مهمة في هذا الإطار. فإذا كان أقدم نص من هذا النوع (نقيشة توگاّ) يؤرخ بحوالي 139 ق.م، فإن هذا التاريخ يمثل مؤشرا على ما كان عليه الأمر قبل ذلك، أي استعمال اللغة الليبية خلال فترة السيطرة القرطاجية في الأغراض المدنية والجنائزية. إذ ليس من المنطقي أن نحصر ذلك بالفترة التي أرخت بها النقيشة، حيث لا يستبعد أن يعكس ذلك الاستعمال المزدوج تفاعلا حدث بين اللغتين قبل الربع الثاني من القرن 2 ق.م تاريخ افتكاك جزء من البلاد من السيطرة القرطاجية. كما أن ربط استعمال اللغة الليبية بالمناطق المذكورة بفترة السيطرة النوميدية والاعتقاد بأن الملوك النوميديين هم من نشر استعمال اللغة الليبية في تدوين

الوثائق الرسمية لا يبدو دقيقا وإلا فبماذا نفسر تفضيل اللغة البونية كلغة للكتابة في عواصم الممالك النوميدية نفسها؟

لقد مكنت محاولات تأريخ الأنصاب الليبية التي عثر عليها بغرب تونس بالإضافة إلى إفادات تأريخ الوثائق الرسمية المشار إليها من طرح مسألة قدم استعمال الليبية بالبلاد النوميدية التي استولى عليها الملوك النوميديون عقب الحرب البونية الأخيرة. فقد تم تأريخ بعض الأنصاب بالقرن 3 ق.م (Hachid, 2000 : 181)، وهناك من اقترح إرجاعها إلى القرن 4 ق.م (Galand, 1989 : 70). علما بأن حروفا ليبية على إحدى الشقف الخزفية في تيديس (Tiddis) التي لا تبعد كثيرا عن توگاّ، أرخت بما بين 350 و150 ق.م (Camps, 1977 : 156). ومن هنا يمكن النظر لتداول الكتابة واللغة الليبية في مناطق كانت خاضعة لقرطاج مثل توگاّ، ومكثر، وتبرسق بمثابة مؤشر يبين صمود تلك اللغة، واستمرارها بتلك المناطق رغم تأثير البونية كلغة رسمية، وبالتالي تمسك الأفارقة بلغتهم الأم.

ولذلك يبدو من المنطقي الاتفاق مع بعض الدراسات التي خلصت إلى استنتاجات متشابهة رغم اختلاف المقاربات مثل الرأي الذي عبر عنه لبينسكي (Lipinski, 1993 : 254) لما طرح فرضية استمرار اللغة الليبية إلى جانب البونية في الأرياف والمدن، واستنتاج كامبس (Camps, 1987 : 55) بأن الأنصاب والنقائش المزدوجة ونقائش الحوانيت تعطي فكرة عن استمرار تداول الليبية في البلاد الأفريقية. ولا يستبعد أن بعض الأمازيغ فضلوا التمسك بالإرث اللغوي القديم، بينما آثر آخرون استعمال الكتابتين واللغتين معا (Gsell, 1929 : 107). وكيفما كان الأمر، فإن المعطيات المتوفرة تسمح بتأكيد تزامن استعمال اللغتين وعدم اندثار اللغة الليبية نتيجة انتشار البونية. رغم أنه يبقى من الصعب فهم سر حاجة نفس الساكنة إلى التعبير-كما تدل على ذلك النقائش المزدوجة- بلغتين وكتابتين.

ورغم أهمية القراءات الجديدة، فإن معرفة مدى انتشار تداول اللغة الليبية خلال الفترة القرطاجية يبقى غامضا ولو أن انتشار السكان الأمازيغ يوحي بأن ذلك الاستعمال كان واسعا، إذ لا نعثر خارج توگاّ على دليل يثبت استعمال اللغة الليبية في الوثائق الإدارية الرسمية. ومن هذا المنطلق، استنتج البعض بأن تداول اللغة الليبية أصبح محصورا بسبب انتشار البونية كلغة رسمية (Lancel, 1992 : 374). بينما أضاف البعض الآخر عامل تراجع تقاليد الكتابة عند الأمازيغ وقلة الكتبة والعارفين بتلك الكتابة (Mercier, 1924 : 288)، أو ربما طغيان الخطاب الشفوي لدى هؤلاء السكان. وهذا أمر محتمل بالنظر لصعوبة الحكم بتراجع الليبية كلغة تخاطب أمام تقدم البونية فقط من خلال البقايا المادية لأن اللغة الشفهية لا تترك بقايا مادية مباشرة. ومن ناحية أخرى، فإن استمرار اللغة الأمازيغية في مناطق بالجنوب التونسي (جربة

ومطماطة) يعطي فكرة عن صمود اللغة في تلك الربوع بعد انصرام مئات القرون على سقوط قرطاج.

2- العلاقات اللغوية بين البونية والليبية

تصطدم دراسة العلاقات اللغوية بين البونية والليبية القديمة بعدة مصاعب، من أهمها ضعف معرفتنا بالمكونات اللغوية لكلتا اللغتين. إذ رغم كثرة النقائش البونية، يبقى من الصعب التوفر على عدد مهم من ألفاظ وتعابير تلك اللغة في حين تطرح معرفة المعجم الليبي صعوبات أكثر حدة. يضاف لذلك عدم اهتمام الكتاب القدامى بالحديث عن لغة السكان الأمازيغ بسبب جهلهم بها[6]. لذلك تبقى النقائش الليبية هي المصدر الأساسي لدراسة اللغة الليبية القديمة وفهم علاقتها باللغة البونية.

لقد عثر بتونس وليبيا وباقي الأقطار المغاربية على عدد كبير من النقائش الليبية حيث أصبح عدد الوثائق يفوق الألف. غير أن دراسة تلك النصوص وتفكيك رموزها وقراءة ألفاظها وفهم معانيها ما زال أمرا معقدا ونتائجه غير مؤكدة باتفاق معظم المختصين (Fevrier, 1984 : 322). لقد اتضح من خلال المحاولات التي تمت في هذا الإطار مدى ضعف إفادة النقائش الليبية بسبب قلة الألفاظ والصيغ والأفعال والتعابير مقابل كثرة أسماء الأعلام بفعل الطابع الجنائزي والتذكاري للنقائش (Fevrier, 1956 : 264). كما تتسم الألفاظ التي ميزها الباحثون في تلك الوثائق بعدم التنوع نظرا لتكرارها باستمرار دون أن يتمكن علماء اللغات القديمة من فهم معانيها (Chabot, 1921 : 68). كما لم تساهم نقائش الصحراء في توفير ما يسمح بفك الغموض الذي يطبع نقائش المناطق التلية بسبب طابع الاختصار الذي يطغى عليها (Hachid, 2000 : 186).

دفع ضعف فائدة الكتابات على الأنصاب إلى تركيز الاهتمام على النقائش المزدوجة (ما يناهز 20 نقيشة في شمال أفريقيا) بسبب التقدم النسبي المسجل في فهم النقائش البونية. لكن إذا استثنينا نص توگآ فإن معظم النصوص تتميز بقصرها، وبالتالي قلة ألفاظها وضعف أهميتها من الناحية اللغوية. ينضاف إلى ذلك عائق موضوعي آخر يعترض دراسة اللغة الليبية، ويتمثل في تصدي علماء اللغات السامية للبحث في قضاياها. لقد أدى جهل هؤلاء باللغة الأمازيغية الحديثة وعلاقتها باللغة الليبية القديمة[7]، فضلا عن العوائق الموضوعية الأخرى التي تعترض دراسة من هذا

6 انظر بعض النصوص التي تحدثت عن لغة الأصلاء بكيفية غير مباشرة :
- Hérodote, IV, 183 ; Pline l'ancien, V, 1 ; Salluste, XVIII, 8.

7 كان أوائل الباحثين في اللغة البونية والليبية أقل إلماما باللغة الأمازيغية، وكان بعضهم يجهلون كل شيء عن تلك اللغة. و يمكن الاستشهاد هنا بالرسائل المتبادلة بين أبرز الذين اهتموا بالأبحاث اللغوية وهما : شابو ومارصي، والتي تتضمن اتهامات متبادلة بجهل اللغة الأمازيغية : (Marcy, 1937 : 143).

القبيل، إلى جعل الدراسات اللسانية مقصورة على البحث عن تأثير اللغة البونية في الليبية وليس العكس. علما أنه من المنطقي تماما أن تنشأ عن تجاور مكونين لغويين بنفس المجال الجغرافي دينامية خاصة من التفاعل على مستوى أهم عناصر اللغة، خصوصا إذا أخذنا في الحسبان المعطيات البشرية للمجال الأفريقي البوني الذي استعمل اللغتان في ربوعه. ذلك أن العنصر الفينيقي الذي أدخل اللغة الفينيقية لم يكن يعيش وحده بذلك المجال، بل اختلط بعدد كبير من السكان الأمازيغ الذين يفترض أنهم استعملوا لغتهم الأم كأداة للتخاطب اليومي.

إلا أن الطابع الأحادي الذي ميز أولى الدراسات اللسانية لجهة الاهتمام بالفينيقية وتطورها بأفريقيا حال دون إحراز تقدم كبير في معرفة التفاعل الذي حصل على الأرض الأفريقية بين المعجم الليبي والبوني، وبالتالي لا يمكن الادعاء بأن الأبحاث اللسانية قد توفقت في تمييز الألفاظ ذات الأصل الفينيقي في اللغة البونية عن تلك المستمدة من اللغة الليبية القديمة. فإذا كانت النقائش الفينيقية في الشرق قد ساعدت على معرفة بعض الألفاظ الفينيقية المستعملة في اللغة البونية بأفريقيا، فإنه من غير الممكن تعميم تلك القواسم المشتركة على كل المعجم البوني نظرا لضعف حظنا من ألفاظ تلك اللغة. كما ينبغي الحذر أيضا من محاولة رد بعض الألفاظ البونية التي لها معنى في اللغة العربية بصفة تلقائية إلى أصل فينيقي. فإذا كانت اللغة العربية قريبة من الفينيقية، فهي مختلفة عنها في نواح كثيرة (Mercier, 1924 : 199). وبالتالي فإن التماثل الصوتي بين بعض الألفاظ البونية والعربية لا يلغي فرضية الأصل الليبي[8](Peyras, 1986) نظرا لاحتمال وجود علاقات لغوية قديمة بين اللغتين الفينيقية والليبية.

إذا انطلقنا من مقارنة بعض ألفاظ اللغتين من خلال النصوص المزدوجة ب توگآ، سنلاحظ ما يوحي باستقلال اللغتين عن بعضهما البعض، حيث نجد لمعظم ألفاظ النص البوني مقابلا في النص الليبي (انظر الجدول رقم I). كما نجد ألفاظا بونية لا مقابل لها في النص الليبي مثل : واو العطف، حيث إن النص البوني يتضمن أسماء أعلام يفصل بينها واو العطف، وهو ما لا نجده في النص الليبي، حيث كُتبت الأسماء دون وجود أداة تعوض واو العطف في النص البوني (Galand, 1973 :91).

استنتج البعض من النقائش المزدوجة بأن اللغة الليبية تأثرت ببعض ألفاظ المعجم البوني سواء من خلال استعمال أسماء الأعلام البونية المرتبطة بالألوهية (Camps, 1961 : 30)، أو من خلال الأصل البوني لبعض كلمات الليبية القديمة (Behrens, 1988 : 37) كما يمكن أن يُفهم من نقل ألفاظ بونية إلى النص الليبي

[8] Peyras M., (Discussion) dans Sznycer, M., 1986

دون ترجمة. فلا يستبعد أن المعجم الليبي قد تعزز بمفردات جديدة نتيجة لإدخال الفينيقيين أفكار مختلفة وأدوات لم تكن معروفة بالمنطقة، وبالتالي أسماء للإشارة جديدة إليها. غير أنه لا يمكن الإدعاء بأن اللغة الليبية قد فقدت -نتيجة لذلك- سماتها كلغة مستقلة (Mercier, 1924 : 199). ذلك أن قلة المفردات المدروسة يدفع إلى التقليل من أهمية تأثير البونية في الليبية على المستوى المعجمي (Mercier, 1924 : 200).

الجدول رقم I : بعض الأمثلة لاختلاف ألفاظ اللغتين البونية والليبية من خلال النقائش المزدوجة

النص الليبي	النص البوني	المعنى التقريبي
ص ك أ	ب ع ل أ ت	في النص الليبي يعني "مدينة" وفي النص البوني تعني على الأرجح "سكان المدينة"
ب ن ي	ب ن أ	بنى
ف ش ج	ت م ق ر	ضريح/معبد
م أ(م س ن سن)	ل(م س ن س ن)	لام النسبة
أ ك ل د ت	م م ل ك ت	ملك
أ و	ب ن	ابن
ش ف ط	ش ف ط	الشوفط(والي كبير)
أ م و س ن ا ك ا	ر ب ت م أ ت	قائد المائة
م ص ي ص ك و ا	م ص ص ك و ي	معماري!
أ ك ز ب ا	ج ز ب ي	المكلف بالبناء!
أ س ك و س	ش ن ت	سنة
ج م ي ل أ	ج ي م ل	الجمل!
أ	هـ	أداة التعريف
ك س ل ن س	ب أ ز ر ت	الحفارون!
ش ك ر ي	ش ي ر	الجير!

المصدر بتصرف عن: (Marcy, 1936) و(Chabot, 1940).

أما فيما يخص تأثير الليبية القديمة في اللغة البونية، فإن حضور أسماء الأعلام الليبية في النقائش البونية يمثل مؤشرا هاما على التأثير المفترض : (Mercier, 1924 200). والذي يبدو منطقيا بحكم تعايش الفينيقيين والأمازيغ. لكن تلك الأسماء، التي ربما كان من بينها أسماء مرتبطة بالألوهية، ما زالت معانيها مجهولة لحد الآن، مما لا يمكّن من فهم دلالاتـها ومحاولة التقرب أكثر من بعض عناصر اللغة الليبية التي كانت مستعملة بسبب صعوبة توظيف الأمازيغية الحديثة في الدراسات التي أنجزت. افترض گسيل أن المعجم البوني قد اقتبس الكثير من ألفاظ اللغة الليبية القديمة، لكن دون أن يؤثر ذلك في نظره على بنية تلك اللغة واستقلاليتها (Gsell, 1929 : 112)، وهو ما يبقي تلك الفرضية مطروحة للنقاش إلى أن يحرز تفكيك الليبية التقدم الذي يسمح بالحسم في هذا الأمر.

يعد الجانب الصوتي أحد أهم عناصر اللغة التي يمكن أن تختزن التفاعلات التي حصلت بين اللغتين. فقد مكنت النقائش المزدوجة من ملاحظة عدد من عناصر الاختلاف بين اللغتين. فمعلوم أن ضعف النظام الصوتي للغة البونية يمثل إحدى

العناصر اللغوية المميزة لهذه اللغة عن الفينيقية. وقد فُسر ضعف الصواتم الأقصى حلقية (الألف والعين والهاء والحاء) بتأثير اللسان الأمازيغي القديم في نطق الألفاظ البونية (الفرجاوي، 1993 : 155). وهكذا يتضح من خلال النقائش المزدوجة بأن الأمازيغ لم يكونوا ينطقون الصواتم الحلقية البونية، وإنما استعملوها كحركات أساسية Matres lectionis (Chabot, 1935 : 33 et Fervrier, 1984 : 327). ويتجلى ذلك في إبدال عدد من الصواتم البونية في اللغة الليبية، مثل تعويض حرف الياء بالألف (*م ص ص ك ي تُصبح م ص ص ك أ*)(Marcy, 1936 : 23) ، أو إبدال العين ياءا (*ج ع ي ي تنطق ج ي ي أ*) (Mercier, 1924 : 25)، أو الزاي هاءا (*ز ل ل ص ن تُصبح هـ ل ل ص ن*) (Mercier, 1924 : 26). فهذه أمثلة دالة على التحولات الصواتية التي تسجل عند نطق اللفظ من البونية إلى اللغة الليبية. ويتضح هذا الأمر أكثر من خلال اختلاف كتابة أسماء الأعلام في اللغتين، والذي يمكن من رصد عدد من الظواهر الصواتية ولاسيما ضعف وإبدال الصواتم والتي ربما لحقت اللغة البونية بتأثير اللسان الأمازيغي (انظر الجدول رقم II).

تعكس التحولات الصواتية المذكورة سابقا بعض الأمثلة المفيدة للتعمق في دراسة تأثير الصواتة الليبية على اللغة البونية مع وجوب الإقرار بالطابع الجزئي للمعطيات الحالية. فنحن لا نعرف بالضبط التحولات الصواتية التي لحقت باقي ألفاظ اللغتين الليبية والبونية. فاللغة البونية تعد حاليا لغة ميتة تعتمد على كتابة الحروف الصوامت دون الحركات، الأمر الذي يجعل محاولات تحديد العناصر الصواتية للألفاظ القليلة التي وجدت بالنقائش أمرا صعبا وتبقى نتائجه نسبية. كما لا يمكن الادعاء بأننا واثقون من أن اختلاف رسم أسماء الأعلام ناجم بالضرورة عن تغيرات صواتية صرفة، وليس بسبب أخطاء وقع فيها الكتبة أو نتيجة تحريف مقصود للأسماء.

جدول رقم II: التحولات الصواتية بين اللغة البونية والليبية من خلال أسماء الأعلام بالنقائش المزدوجة

اللغة البونية	اللغة الليبية
ج ع ي ي	ج ي ي أ
ز ل ل ص ن	هـ ل ل ص ن
أ ف ش ن	ف ش ن
م ج ن	م ج ن/ ي
ت د ي ل ن	ت س د ي ل ن
ع ب د أ ش م ن	ش م ن
ز م ر	هـ م ر
أ ش ي ن	ش ي ن
ت ب ج ج (إسم مدينة)	ت ب ج ج أ
ع ب د ش ت ر ت	و د ش ت ر ت
و ر س ك ن	ور ت س كن
ي ف د ع ت	ي ف د ت
ب ع ل ش ل ك	ب ر ش ل ت
ج ر أ	ج ر هـ
ح ن ن	هـ ن هـ
ب ع ل ح ن ن	ب هـ ن هـ
ك ل م و	ك ل م هـ
س ك ر ب ع ل	س ك ب ل
ن ع م ج د أ	ن م ج د هـ
ب د ع ش ت ر ت	ب ش ت ر ت
ش د ن	س د ن

المصدر: عمل شخصي

أما بالنسبة للغة الليبية، فلا ينبغي إغفال ضعف معرفتنا بنظام الصواتة في الأمازيغية القديمة. ذلك أن تمييز المقابل الصوتي للحروف الليبية في النقائش المزدوجة لا يتعدى 14 حرفا من ضمن حوالي 24 حرفا لا نعرف طريقة نطقها بالضبط (Galand, 1989 : 74) . وهذا غير كاف بالنسبة لتطور البحث في موضوع التفاعلات الصواتية بين اللغتين البونية والليبية. ورغم ذلك، اعتبر مرسيي(Mercier, 1924 : 199) بأن اللغة الليبية تشترك مع البونية في بعض عناصر اللغة مثل النظام الصيغي والصرفي كما يتضح من خلال تمييز المؤنث باستعمال السابقة (تاء)، وكذلك الجمع باستعمال اللاحقة (نون) وأحيانا (ميم)، بالإضافة إلى تشابه النظام الصرفي للغتين. غير أن ضعف معطياتنا حول النظام الصيغي والصرفي للغة الليبية

القديمة لا يسمح بالقيام بدراسة معمقة تمكن من معرفة حجم التلاقي بين اللغتين على هذا المستوى.

خاتمة

يستفاد من خلال استقراء المعطيات التي عرضنا إليها بشأن العلاقات بين اللغتين البونية والليبية، أنهما قد استعملتا جنبا إلى جنب خلال الفترة البونية مع تسجيل السبق الذي حازته اللغة البونية في تدوين الوثائق الإدارية والدينية مقابل ضيق استعمال اللغة الليبية في تلك الأغراض، رغم استمرارها كلغة للتداول والتخاطب الاجتماعي بالنسبة للغالبية العظمى من السكان المحليين. وقد سجلت النقائش المزدوجة الليبية-البونية بعض الظواهر اللغوية التي أسفر عنها ذلك التجاور على مستوى أهم عناصر اللغة ولاسيما الصواتة والمعجم. وإذا كانت قراءة النقائش المزدوجة قد مكنت من الوقوف على بعض نماذج التفاعل الذي حصل خلال العصر القرطاجي المتأخر، فإن رصد تلك الظواهر اللغوية يبقى صعبا بسبب ضعف محتويات الوثائق المتوفرة من ألفاظ اللغتين معا. هذا فضلا عن أن ذلك التفاعل ربما تجسد بصفة أعمق في لغة التداول اليومي أكثر من اللغة المكتوبة. ويبدو بأن التفاعل اللغوي الذي حدث على الأرض الأفريقية قد انعكس في اللهجات المتداولة من خلال استعمال لهجة أكثر تحريفا من اللغة البونية الرسمية (Ferjaoui, 1991 : 483) رغم الصعوبات التي تطرحها البرهنة العلمية على ذلك.

بيبليوغرافيا

الركيگ، عبد اللطيف (2007)، *الحضارة القرطاجية بين المحلي والمستورد*، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ القديم وعلم الآثار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (مرقونة).

الفرجاوي، أ. (1993)، *بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة*، المعهد الوطني للتراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، ص ص. 155.

غازي، حليمة (2006)، « آثار الفينيقيين والقرطاجيين بمملكة المغرب القديم بين البحث عن الواقع والجري وراء السراب »، *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط*، العدد 26، ص ص 69-90.

فنطر، م. ح. (1999)، «حول النقائش البونية »، *مجلة الدراسات الفينيقية والآثار اللوبية*، العدد 11، ص ص. 1-35.

فنطر، م. ح. (2002)، « معطيات حول الواقع اللغوي في تونس من قرطاج إلى القيروان » *ضمن : نشأة الكتابة في البلاد المغاربية*، أعمال الندوتين المنظمتين من طرف مؤسسة آل سعود بالبيضاء أيام 17-18 يناير و 18-19 أبريل 2002، ص ص. 8-17.

Behrens, P. (1988), « Langues et migrations des premiers pasteurs du Sahara : la formation de la branche berbère », *Libyca antiqua*, n° 11, pp. 31-53.

Berthier, A. et Charlier R. (1955), *Le sanctuaire punique d'El-Hofra à Constantine*, AMG, Paris.

Bunnes, G. « La distinction entre phéniciens et puniques chez les auteurs classiques », *in Atti del I congresso internazionale di studi fenici e punici*, Roma 5-10 novembre 1979, Vol. I, Roma, 1983, pp. 231-238.

Camps, G. (1961), *Aux origines de la Berbérie, monuments et rites funéraires protohistoriques*, AMG, Paris.

Camps, G. (1977), « Recherches sur les plus anciennes inscriptions libyques de l'Afrique du Nord et du Sahara », *BCTH*, n.s, n°10-11, fasc. A, pp. 143-166.

Camps, G. (1987), « Protohistoire de l'Afrique du Nord : questions de terminologie et de chronologie » *REPPAL*, Tome III, pp. 43-70.

Chabot, J.-B. (1921), « Les inscriptions libyques de Dougga », *Journal asiatique*, T. XVII, n°1, Janvier - mars, pp. 67-96.

Chabot, J.-B. (1935), « À propos d'inscription punique », *Revue Africaine*, 72è année, n°364-365, 3ème et 4ème trimestres, pp. 27-34.

Chabot, J.-B. (1940), *Recueil des inscriptions libyques*, 1er fascicule, Imprimerie nationale, Paris.

Ferjaoui, A. (1991), « À propos des inscriptions mentionnant les Suffètes et Rabs dans la généalogie des dédicants à Carthage », *in Atti del II congresso internazionale di studi fenici e punici*, Roma 9-4 novembre 1987, Vol. II, Roma, pp. 479-483.

Février, J.-G. (1956), « Que savons-nous du libyque », *Revue Africaine*, Tome C , pp. 263-273.

Février, J.-G. (1984), *Histoire de l'écriture*, Payot, Paris.

Galand, L. (1973), « Observations sur l'enchaînement du récit en berbère », *in Actes du 1er congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence arabo-berbère*, Alger, pp. 81-99.

Galand, L. (1989), « Les alphabets libyques », *Antiquités Africaines*, T. 25, pp. 69-81.

Ghaki, M. (1979), *Recherches sur les rapports entre les phénico-puniques et les libyco-numides Vè siècle av. j.-c-1er siècle av. j.- c*, Thèse de 3ème cycle, Université de Paris I, Panthéon Sorbonne, (dactylographiée), Paris.

Ghaki, M. (1984), « La répartition des inscriptions libyques et les cités antiques » *BCTH*, n. s., 17, fasc. B, pp. 183-187.

Gsell, S. (1929), *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, T. IV, 2è éd., Librairie Hachette, Paris.

Hachid, M. (2000), *Les premiers berbères*, Editions Berbères, p. 181.

Hérodote, *Histoires*, *Livre* IV, Texte Traduit par Legrand, P.E. (1949), Paris, éd. Les Belles-lettres.

Lancel, S. (1992), *Carthage*, Fayard, Paris.

Levi Della Vida, G. (1927), « Le iscrizione neopuniche della Tripolitania », *Libya Antiqua*, T.2, , pp. 1-26.

Levi Della Vida, G. (1966-1967), « Iscrizione punico da Sabratha », *Libya Antiqua*, T. VIII-IX, pp. 9-11.

Lipinski, E. (1993), « Langue », *Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique*, Brepols, Paris, p. 254.

Longerstay, M.-S. (1983), « Les Houanet de Khroumirie et des Mogods », *Dossiers histoire et archéologie*, n° 69, Décembre 1982-Janvier 1983, pp. 9-15.

Marcy, G. (1937), « Réponse à M. l'Abbé Chabot », *Revue Africaine*, Tome. LXXX, n° 371, 2ème Trimestre, pp. 142-158.

Marcy, G. (1936), « Les inscriptions libyques bilingues de l'Afrique du Nord », *Cahiers de la société asiatique*, n°V, Imprimerie nationale, Paris.

Mercier, G. (1924), « La langue libyque et la toponymie antique de l'Afrique du Nord », *Journal Asiatique*, T. CCIV, Octobre-Décembre 1924, pp. 189-320.

Poinssot, L. (1933), « Inscriptions libyques de Tunisie », *Revue Tunisienne*, n° 13-14, 1er et 2è Trimestre, pp. 19-30.

Rebuffat, R. (1975), « Graffiti en libyque de Bu Njem » *Libya Antiqua*, Vol. XI-XII, 1974-1975, pp. 165-187.

Salluste, *Guerre de Jugurtha*, XVII, XVIII.

Sznycer, M. (1986), « Le problème de la "Mégara" de Carthage », *in Actes du IIIè colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord*, Montpellier 1-5 Avril 1985, CTHS, pp. 119-132.

Varron Pline l'ancien, *Histoire Naturelle*, V, 1.

مجلة *أسيناگ*- □□□□□□، العدد الأول – 2008، ص 49 - 74

تعريب المجتمع في العصر الوسيط ودوره في التنوع الثقافي واللغوي بالمغرب

رحمة تويراس
كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط

ملخص

يعتبر التعدد اللغوي والثقافي من أبرز سمات تاريخ المغرب. وكما هو معروف، أصبح التعريب موضع سجال بين المهتمين إن لم يكن يحتل مكان الصدارة في النقاشات المعاصرة. وفي هذا السياق، نتساءل عن عمق هذا الواقع خلال العصر الوسيط، مع رصد الظواهر الكبرى واستقراء المكونات الأساسية التي أنتجته.

وبما أن سلسلة التعريب مغمورة ومفككة في خضم الوقائع والأحداث السياسية، فإن هذا الواقع لا يلمس إلا في صورة أصداء خافتة. وعند قراءة النصوص التاريخية نفاجأ بفراغ في الرواية، وفي أحسن الأحوال نصادف نتفا من الأخبار عبارة عن جمل أو سطور لكنها -على ضآلتها- تبدو ثمينة.

تجلى التعريب في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط على مستويين : على مستوى الدولة؛ حيث أصبحت اللغة العربية وقيمها الثقافية مقبولة ومتبناة تؤهل لأخذ المناصب والخطط والارتباط بسلك الدولة؛ وعلى مستوى المجتمع، إذ سارت الأمور في اتجاه يدعم ترسيخها على مستوى التداول اليومي في الحواضر والبوادي. وهذا العنصر الأخير هو المقصود في هذا المقال.

مقدمة

استرعى التنوع اللغوي خلال العصر الوسيط اهتمام الدارسين (Marçais, 1938; Terrasse, 1947 ; Montagne, 1947; Laroui, 1970; Camps, 1983; Aguadé et *al* J. 1998) ، وأثار لديهم عددا غير قليل من الأسئلة. وكما هو معروف، أثرت الفتوحات الإسلامية في كل الشعوب التي حلت بينها، وبدأت اللغة العربية تخترق بيئات جديدة ذات حضارات عريقة في كل من آسيا، وأفريقيا، وشبه الجزيرة الإيبيرية. واحتكت أثناءها بعدد من اللغات مثل الآرامية، السريانية واللاتينية

بالشام، والفارسية ببلاد فارس، والقبطية بمصر، والأمازيغية واللاتينية بشمال أفريقيا، والقوطية بإسبانيا، إلى غير ذلك من اللغات في أقطار مختلفة مثل الهند وغيرها.

وكان تأثير اللغة العربية في هذه اللغات متفاوتا من منطقة إلى أخرى. ففي مصر، انكمشت القبطية في الأديرة والكنائس، وتعربت المنطقة في ظرف زمني وجيز. واتخذت بعض اللغات الآسيوية الحروف الهجائية العربية مثل الأردية والفارسية. وكادت هذه الأخيرة أن تضمحل لولا حركة إحيائها التي ظهرت أواخر القرن الثالث الهجري/9 م. وفي سواحل شرق أفريقيا، استوعبت اللغة السواحلية قدرا كبيرا من المصطلحات العربية، واشتملت لغات أخرى على كلمات وتراكيب عربية.

وفي الغرب الإسلامي بجناحيه الشرقي والغربي، بدأت اللغة العربية تنتشر إلى جانب اللغة الأمازيغية وعرف المغرب الأقصى تحولا مذهلا على المستوى اللغوي؛ حيث شكل التعريب واقعا متميزا وبارزا، استمر في الترسخ عبر القرون في سيرورة لا تنقطع. وأضحت اللغة العربية تغطي رقعة مهمة على الخريطة اللغوية.

1 -ملاحظات أولية

لما اعتنق الأمازيغ الإسلام، بدأت اللغة العربية تشق طريقها تدريجيا في المجتمع الأمازيغي؛ وذلك عبر طرق وقنوات متعددة وحقب مختلفة. وهناك ملاحظة أولية تفرض نفسها، وهي أن التعريب لم يكن ملازما للإسلام؛ فرغم الارتباط الوثيق بين الإسلام والعربية، فإنهما لم يسيرا بشكل متوازٍ (Camps, 1983)؛ إذ أصبح جزء كبير من المغرب مسلما في أقل من قرنين من الزمن في وقت لم تستقر فيه اللغة العربية بعد. وتدريجيا برزت كفاعل أساسي في مسار تاريخ المغرب (Marçais, 1938). واجتمع لها من عوامل القوة[1]، وتهيأ لها من الأسباب ما جعلها لغة التخاطب اليومي، ولغة الإدارة والتعليم والآداب (العروي، 2000)؛ ساعدها في ذلك سلطتها

[1] بمعنى أنها أصبحت لغة عالمة انتشرت خارج موطنها الأصلي بعامل القهر الثقافي، وبرهنت على حيويتها الثقافية، واحتضنت أرقى حضارة عالمية ومنتهى ما وصلت إليه المعرفة البشرية في ذلك العصر. لذلك كان طبيعيا أن تصبح اللغة العربية لغة الإدارة والمراسلات والمنتديات الثقافية. كما ساهم الخط العربي بقوة في خدمة اللغة العربية فهو يلي الحديث أو الكلام من حيث الترتيب الدلالي اللغوي، (ابن خلدون، 1988)، وبدأ يعرف الانتشار مع الفتوحات الإسلامية. إلا أن البداية الحقيقية لانتشاره بدأت عندما انتهجت الدولة الإسلامية سياسة التعريب في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، ومال المجتمع الإسلامي الواسع كله تقريبا إلى الخط العربي؛ بل إن كثيرا من اللغات أصبحت تكتب به، فالفارسية تكتب وإلى يومنا هذا بحروف عربية مكيفة جزئيا مع خصوصيات الفارسية. واختارت لغات أخرى الخط العربي شأنها شأن الفارسية. وانتشر الخط العربي بشمال أفريقيا باعتباره رسم القرآن (Sourdel). كما سجلت بعض المؤلفات الفقهية والعقائدية الأمازيغية بخط عربي. واستعمل كذلك في الزخرفة وعلى الآثار المعمارية والقطع النقدية. وتعرض لتحويرات جمالية على يد الخطاط المغربي بأسلوب يختلف عن الأسلوب المشرقي.

المعنوية؛ غير أن القضية لا تتصل فقط بالشعور الديني، إذْ إلى جانب الموقف العاطفي توجد عوامل أخرى داخلية وخارجية مهدت للتعريب.

شكل المغرب على امتداد تاريخه معبرا هاما التقت عبره تيارات وحضارات متنوعة. وكما هو معروف، رافق الاحتلال الروماني دخول الديانة المسيحية، واللغة اللاتينية التي صارت لغة رسمية للكنيسة الأفريقية. وكثيرا ما تساءلت الأبحاث الغربية عن أسباب اندثار اللغة اللاتينية بهذه السرعة المدهشة. صحيح أن العرب أبقوا على اللاتينية في البداية بإفريقية كلغة للإدارة، ومع استمرار سياسة تعريب الإدارة والدواوين في الدولة الإسلامية أخذت اللاتينية تفقد أهميتها وتسير نحو الأفول. كما أن استعمال اللاتينية كان شائعا في جنوب تونس أواسط القرن السادس الهجري/ 12م؛ إذ أن أغلب سكان قفصة كانوا يتكلمون باللسان اللاتيني الإفريقي (الإدريسي، 1970). وهذا يدعو إلى الاعتقاد بأن استعمال اللغة اللاتينية هي الخاصية التي كانت تميز الأفارقة. وبالمغرب الأقصى، لا يبدو أن اللاتينية تحولت إلى أداة للتواصل اليومي بين الأمازيغ، وربما لم تكن منتشرة على النطاق الذي تخيله الباحثون الغربيون (العروي، 2000)، فظلت اللغة الأمازيغية صاحبة السيادة والنفوذ.

ولما لم يترك التدخل الروماني أثرا كبيرا على المستوى اللغوي، فإن المرحلة الإسلامية تركت بصمات قوية، وطبعت بعمق ملامح الهوية المغربية. لعل ما يبرز أهمية الموضوع أن هناك مجموعات بشرية اعتنقت الإسلام، لكنها حافظت على لغاتها ولهجاتها، وإن تأثرت بشكل أو بآخر باللغة العربية. بينما تبنى المغرب الأقصى اللغة العربية (صدقي، 2002) و صارت الأمور في اتجاه يمثل ترسيخها على المستوى الثقافي والإداري (المنوني،1991؛ Garcin et *al*. 2000) وكذلك على مستوى التداول اليومي.

2 - مفهوم التعريب

التعريب بمفهومه الشامل هو كل ما يتعلق بإنتاجات المجتمع الثقافية والاجتماعية وسائر المؤثرات الحضارية؛ بحيث تمثل فيه اللغة عنصرا أساسيا، ويشمل أمرين رئيسين:

- أولا : اتخاذ اللغة العربية لغة التواصل بين أفراد المجتمع،
- ثانيا : استعمال اللغة العربية في الإدارة والثقافة والتعليم.

فهناك العربية الفصيحة التي تميزت عن العامية واستعملها العلماء والأدباء والفقهاء، وهناك العامية لغة التخاطب اليومي التي كان يتداولها الناس في حياتهم العادية وأمورهم اليومية.

وبما أن التعريب جاء نتيجة مخاض تاريخي طويل، فسنحاول تتبع وتقصي الأشواط التي قطعها بوضعه في سياقه التاريخي العام. ولعل أهم وسائل التعريب تكمن في العنصر البشري، الذي شكل مادته الأولى العنصر العربي خاصة، مع توجيه الاهتمام إلى مواطن استقراره، ورصد المجالات التي اعتمد أهلها على اللغة العربية كلغة للتواصل اليومي، أو تلك التي ظلت صلتها بها ضعيفة.

3-الفتح الإسلامي والهجرات العربية المصاحبة له

من خلال استقراء الوقائع والأحداث التاريخية، نلاحظ أن الحضور العربي كان أقوى في إفريقية والأندلس منه بأقصى المغرب. فالجيوش العربية كانت تتركز أساسا في القيروان (ابن عبد الحكم، 1964؛ ابن عذاري، 1980) ولم يكن يتخلف بالمنطقة سوى أقليات متناثرة ومحدودة من العرب الذين كان يكلفهم القواد الفاتحون بمهمة تلقين مبادئ الإسلام. فموسى بن نصير لم يترك بأقصى المغرب حسب رواية ابن عذاري سوى سبعة وعشرين رجلا، ولا يقترن بعقبة إلا اسم صاحبه شاكر (ابن عذاري، 1980)؛ ولم يستوطن البلاد إلا أعداد ضئيلة من الولاة العرب وحاشيتهم للقيام بالخدمة العسكرية، أو المهام الإدارية.

وقد يتعلق الأمر بالهاربين من ملاحقة السلطة، إذ كان أقصى المغرب -بسبب بعده عن مركز الخلافة- ملاذا للكثير من الثوار الذين لجأوا إليه حيث لا تدركهم يد الدولة، مثل الخوارج الذين تسربوا إليه في الربع الأخير من القرن الأول للهجرة والذين لا نعلم عنهم الكثير. ولعل سبب ذلك يرجع إلى الأسلوب السري الذي انتهجوه لإجراء التأثير المطلوب، خصوصا بعد فشل ثورتهم بالمشرق، ولا شك أن الحماس لدعوة الخوارج واشتعال ثورة عارمة فجرت الأوضاع بالمغرب الأقصى تقريبا، وامتد تأثيرها إلى المناطق الشرقية يدفع إلى الاعتقاد بأن جماعات من الخوارج دخلت المغرب منذ وقت مبكر (بل،1981). ولا ريب أن تيار الهجرة لم ينقطع وظل مستمرا على امتداد فترة الفتنة.

إن تحديد مواطن العرب الوافدين إلى المغرب الأقصى يطرح مشاكل عديدة، (Rosenberger, 1998) خصوصا أن المعلومات مستترة ومهملة وراء الأحداث الصاخبة. وحسب المصادر، فقد استقرت فروع عربية بالمراكز، والثغور المتناثرة على امتداد الساحل المغربي الشمالي، كما هو الشأن بالنسبة لطنجة التي حلت بها قوات عربية منذ العهود الأولى للفتح الإسلامي، وسبتة التي كانت توجد بها عناصر عربية. وإثر اندلاع ثورة الخوارج بزعامة ميسرة، دخل الأمازيغ المدينة فخربوها وأخرجوا من كان فيها من العرب (البكري، 1911؛ ابن عذاري، 1980؛ ابن خلدون، 1988).

وحل ببلاد الريف صالح بن منصور الحميري الذي انتقل صحبة الجيوش العربية، واستقل بها بعدما أقره الخليفة الوليد بن عبد الملك عليها عام 91 هـ/ 709م. ويبدو أنه استقر معه بعض العرب اليمنيين الذين كانوا ضمن الجنود الفاتحين. ومن المحتمل أن المنطقة كانت ملجأ لعناصر عربية جديدة. فبعد الهزيمة الثقيلة التي حلت بالعرب في موقعة بقدورة بوادي سبو تفرقوا حتى قيل إن منهم من احتمى بجبال درن المنيعة (مجهول الاستبصار، 1985)، فخملت أنسابهم واندمجوا بغيرهم، وبذلك لا يستبعد وصول بعضهم إلى إمارة نكور بالريف (أبو ضيف أحمد، 1986)، وهي كيان عربي سني مالكي يعتبر الأول في المغرب ابتداءً من أوائل القرن الثاني إلى بداية القرن الخامس. وتوارث أبناء صالح بن منصور حكم الإمارة التي انحصر نفوذها في بعض السواحل الشمالية للمغرب حول مرسى المزمّة.

اتجهت أفواج أخرى جنوبا لتنزل بمنطقة السوس. وحسب رواية البكري فإن عبد الرحمان بن مروان نزل بالسوس، وجلب الماء لأهله وعمّره (البكري، 1911). ورحب بالوافدين من الأمويين الذين التحقوا به. ويبدو أن أقصى المغرب أصبح مجالا لتوافد عناصر جديدة أفرادا وجماعات لم تسجلها المصادر، مثلما هاجر إدريس بن عبد الله إثر قيام دولة بني العباس واضطهادهم للأسر العلوية. وكان ذكره سيبقى مغمورا لو لم يؤسس دولة الأدارسة التي استقبلت أول هجرة عربية مكثفة إلى المغرب الأقصى (ابن أبي زرع، 1973؛ الجزنائى، 1967)، والتي كانت بمثابة النواة الأولى لتعريب المنطقة، دعمتها فيما بعد هجرات أخرى.

خلاصة القول إن الأمور بأقصى المغرب كانت مختلفة عما كان عليه الوضع في القسم الشرقي الذي عرف سياسة إعمار مكثفة (الدباغ وابن ناجي، 1968؛ الطالبي، 1985)، وظل مرتبطا بالمشرق عن طريق تيار الهجرة المستمر الذي كان يحمل من الشرق نخبا من أقارب الأسر الحاكمة، أو من شايعها من عصبيتها (الطبري، 1964؛ الرقيق القيرواني، 1968) أو من فر من الشرق تحت لواء دعوة دينية، أو غير ذلك مما يسر للغة العربية مد جذورها في الأوساط الأمازيغية.

وحسب المعلومات المتوفرة، ليس هناك ما يسمح بالاعتقاد أن التعريب قد خطا خطوات مهمة بالمغرب الأقصى. فاللسان الأمازيغي لازال سائدا في مجموع ترابه؛ وإن كانت الصورة التي تقدمها المصادر عن وقائع وأخبار النصف الثاني من القرن الأول الهجري إلى النصف الأول من القرن الثاني الهجري توحي للقارئ أنه أمام منطقة عربية من النيل إلى المحيط، وهذه الصورة أقرب ما تكون إلى الخيال في مجتمع لازال حديث العهد باللغة العربية. كما نعجب لخطبة طارق بن زياد التي ساقها الرواة، (المقري، 1968) وهي خطبة بليغة تنافس الخطب العربية في قوة أسلوبها، وروعة عباراتها، ألقيت على مسامع جيش كان أغلب عناصره من

متطوعي القبائل الأمازيغية الذين بلغ عددهم حسب رواية الرقيق القيرواني اثنا عشر ألف فارس (الرقيق القيرواني، 1968). وعموما، فإن هذه الخطبة ذاعت بين الناس وظلت محفوظة في ذاكرة المغاربة، لكنها لا يمكن أن تعتبر بأي حال عينة من واقع لغوي نظرا لتداخل الأسباب المانعة. وباستقراء هذه المرحلة التاريخية يمكن الخروج بالملاحظات الآتية:

- أولا: إن الفتح يعني بالأساس اعترافا بسيادة دولة الخلافة الإسلامية بالمشرق، ولا يعني بالضرورة فهما عميقا للدين، كما أنه لا يعني استعمال اللغة العربية في التخاطب اليومي (العروي، 2000). ويكفي هنا استحضار ما قاله عبد الله العروي من أنه إذا كان إسلام الأمازيغ في هذه الفترة المبكرة إسلاما سطحيا منحصرا في المبادئ العامة فلا شك أن تعريبهم كان أكثر سطحية (العروي، 2000)؛
- ثانيا: عامل الزمن الذي لا نوليه اهتماما كبيرا. فكما هو معلوم استغرق إسلام الأمازيغ زمنا طويلا، ولعل من بين الأسباب كونهم لا يعرفون اللغة العربية[2]؛ ولا شك أن تعريبهم سيستغرق زمنا أطول (العروي، 2000) على أساس أن اختفاء أية لغة لا يحصل مباشرة وبسرعة، فهو نتيجة مخاض تاريخي طويل. ولم تكن هذه الفترة الوجيزة كافية ليتخلى المجتمع المغربي عن لغته لصالح التعريب. فالأمر كما هو معلوم لا يتعلق بفتح عسكري، وإنما بفتح من نوع آخر لا يتحقق بالمستوى نفسه وبالسرعة نفسها، لذلك من المعقول جدا أن يظهر التعريب بعد حيز مناسب من الزمن.

  وينبغي كذلك أن نضع في الاعتبار الأساس الذي تم الانطلاق منه، وهو أن الفتوحات الإسلامية لم تحدث تغييرا جذريا كبيرا في البنية السكانية لأقصى المغرب (Terrasse, 1952 و صدقي، 2002) من شأنه أن يفرز تحولا لغويا[3].

---

[2] يعتبر جهل السكان للغة العربية من بين الصعوبات التي واجهت الفاتحين في نشر الإسلام في المجتمع المغربي، لكنهم استطاعوا أن يتغلبوا على ذلك نسبيا بإدماج الرهائن في الجيش، ولذلك كان للجيش أثره الملحوظ في نشرها.

[3] حسب دراسة لمحمد الطالبي، بناءا على كتاب البيان المغرب لابن عذاري. فإن الجيوش العربية التي توالت على المغرب مع حركة الفتح الإسلامي قد بلغت في مجموعها من سنة 50هـ إلى 155 هـ (من670 م إلى 771م)- أي ابتداء من جولة عقبة بن نافع، ومرورا بزحف حسان بن النعمان، وانتصار موسى بن نصير، إلى آخر تدخل عسكري بإفريقية بقيادة يزيد بن حاتم- ما يساوي مائة وثمانون ألفا، (الطالبي، 1985)، منها من بقي واستوطن المدن والرباطات والثغور من برقة إلى سبتة إلى طنجة، ومنها من عاد إلى المشرق. وسقط العديد منهم في المعارك التي اشتعلت بين قابس وطنجة. وانتقل بعضهم إلى الأندلس، وكان عددهم أربعون ألف مقاتل. وحسب هذه المعطيات، لا يمكن الجزم بأن الفتح كان موجة عربية عمت المغرب. وكما سبقت الإشارة، فإن الإستيطان العربي الذي صاحب الفتح الإسلامي وما بعده تقوى خصوصا

غير أنه من الإنصاف القول بأن اللغة العربية وجدت مكانا في قلوب الأمازيغ وأسماعهم. وظلت تمارس تأثيرا وجدانيا في هذه المرحلة التاريخية (القادري بوتشيش، 1994). فهي لغة القرآن وتعلمها من تعلمه، فلا غرابة إذن أن يعشقها الأمازيغ المسلمون فيقبلوا عليها لما لها من سلطة معنوية. ولعل هذا هو ما يفسر التلاحم بين الإسلام واللغة العربية.

إن ما يمكن استخلاصه هو أن مجمل المؤشرات والقرائن تدل على أن الحديث عن التعريب في هذه المرحلة سابق لأوانه؛ بل إنه يعتبر ضربا من المغامرة والعبث، لأن الظروف لم تكن مواتية بعد؛ ورغم سطحيته، فهولا يشكل واقعا ظرفيا ولا عابرا، إذ أنه سيزداد رسوخا مع التطورات اللاحقة التي طرأت على المنطقة، لأننا بصدد فترة تمهيدية ككل البدايات.

وبصفة عامة، فإن العامل السياسي والعسكري المتمثل في الانتصار في الفتوحات الإسلامية هو الذي مهد الطريق للغة العربية، وستدعمه عوامل أخرى دينية وثقافية واجتماعية وبشرية، استطاعت فيما يبدو أن تفسح المجال للغة العربية التي صارت- نظرا لما أحاطها من قوة وسيادة معنوية- لغة الإدارة، والتأليف، والكتابة، والتعليم (Marçais, 1938) والتخاطب اليومي في صفوف المجاهدين خاصة في المدن الأندلسية (Levy, 1998). ومضمون هذا الكلام أن التعريب انتظر فرصته المناسبة التي ارتبطت بمجيء هجرات جماعية أخرى ونقصد بوجه خاص العنصرين القيرواني والأندلسي اللذين كانا قوتين متفاعلتين في تقوية التعريب، حيث بدأ يظهر عمليا الانفتاح الفعلي على اللغة العربية.

4– الهجرات القيروانية والأندلسية

عند الاطلاع على المصادر، نلاحظ أن الأندلس وإفريقية كانتا من أهم المنافذ البشرية. والمغرب- كما هو معلوم- كانت أذرعه مفتوحة لاستقبال الوافدين من القيروان والأندلس (ابن أبي زرع، 1973؛ ابن القاضي، 1973؛ ابن عذاري، 1980). وكما يفهم من المصادر، فإن هذه العناصر شاركت في عمارته، وملأت حواضره، وامتزجت بسكانه؛ الشيء الذي كان له تأثير كبير في تسرب اللغة العربية وتقوية نفوذها (Camps, 1980).

إن الأسباب التي حركت الهجرة الجماعية إلى المغرب الأقصى كان العامل السياسي فيها أكثر بروزا وجلاءا، فالاضطرابات وانعدام الأمن بالأندلس وإفريقية

في الجزء الشرقي بانتشار جماعات وبيوتات من العرب. أما نصيب المغرب الأقصى من هذه الهجرات، فقد كان مرتبطا بحركة العبور إلى الأندلس، بينما انحصر الوجود العربي في الساحل الشمالي (العلوي، 1995).

كانا وراء هذه الهجرات، غير أن المصادر لا تقدم معلومات رقمية عن أعداد المهاجرين إلا في حالات قليلة. والمعلومات المتوفرة عن الربضيين والقيروانيين المهاجرين أكثر دقة ووفرة مقارنة مع باقي الهجرات الأخرى.

وإذا تتبعنا الأحداث السياسة وتسلسلها فإن الهجرة إلى المغرب الأقصى، ازدادت وتنامت منذ أن أصبح الأندلس ولاية من ولايات الإمبراطورية المرابطية الواسعة، وأصبح لها من الأسباب غير تلك التي تم الوقوف عليها من هجرة قسرية يبحث أصحابها عن الأمن والاستقرار إلى هجرة اختيارية متعددة الدوافع والأغراض.

ولقد كان الاستقرار الذي ساد المغرب الأقصى أيام يوسف بن تاشفين، ونسبيا على عهد ابنه علي، عاملا مشجعا على هجرة العديد من الأندلسيين. وعمل المرابطون على اجتذاب أكبر عدد منهم قصد الاستفادة من خدماتهم. ووفدت عليهم وفود أندلسية، رفعوا من مكانتها وأشركوها في أدوار متصدرة وبارزة، ومنحوها مناصب سياسية وإدارية في البلاط، أو في ديوان أحد الأمراء بالأقاليم (المراكشي، 1978؛ مجهول الحلل، 1979).

ولما كان المغرب الأقصى خلال العصر الموحدي أكثر أقطار الغرب الإسلامي أمنا واستقرارا، فإن تيار الهجرة الأندلسية إلى المدن المغربية بدأ يتجدد، وبلغ التواصل بين المغرب والأندلس منتهاه، ولاشك أن الظروف الداعية إلى الهجرة لم تتغير كثيرا. وهاجر العديد من الأندلسيين إلى العدوة الجنوبية قاصدين مناطقهم المفضلة، خاصة بالشمال، أو العاصمة مراكش. ويبدو أن هذا التلاقح كان له تأثير خاصة على الوضع اللغوي.

وخلال فترة الجلاء عن القواعد والمدن الأندلسية، بدأت أفواج الأندلسيين تصل إلى المغرب بسبب ضغوط ومضايقات المسيحيين. وقد كان لمدن الشمال نصيب وافر في استقبال جموع الوافدين من ديار الأندلس. (الناصري، 1954) ولما سقطت غرناطة نهائيا في يد الإسبان سنة 897 هـ/1492 م تزايدت أعداد مهاجري الأندلس، وشهدت مدن الشمال أكبر موجة للعناصر الأندلسية، متميزة بثقافتها، ولغتها، وأنماط عيشها (حجي، 1991 ؛ رزوق، 1991) والجدير بالإشارة أن هذه الفئات ضمت نخبا تمتعت بتكوين إداري، وثقافة عربية، مما ساهم في التمكين للغة العربية.

5-المدن مجال حيوي لوجود اللغة العربية

ارتبط تعمير المدن خلال العصر الوسيط بالتحولات التي شهدتها ابتداء من تاريخ تخطيطها، إذ كانت تشمل عناصر من داخل المغرب، والأندلس، والمشرق، نظرا لاستدعاء عناصر مختلفة لملء الفراغ داخل الأسوار؛ بحيث يتم ذلك عبر

توالي هجرات مختلفة (Fatha, 1982). وهذا ما جعل التعريب يرتبط أساسا بالمدن التي شكلت محطات استقطبت الشرائح المهاجرة (Rosenberger, 1998) التي لم تتجاوز في سكناها العواصم الكبرى، وهي ذات أصول حضرية، مما سهل تسرب اللغة العربية كلغة للتواصل بين سكان المدن. أما الأرياف والبوادي -باستثناءات قليلة- فإنها لم تصب من العربية شيئا[4]. كما بقيت الأمازيغية متغلغلة في الصحراء والجبال النائية[5].

أ- وثيرة انتشار اللغة العربية بالحواضر المغربية

بعد مراجعة المعلومات الواردة في المصادر، نستنتج أن هذه الهجرات ساهمت في تطعيم البنية السكانية للمدن بالجنس العربي، وحملت أعدادا من السكان الناطقين باللغة العربية، وكانت هذه العناصر الوافدة هي المحرك لعملية التعريب (Lévy, 1998). وتكفي الإشارة إلى نوع العلاقة التي كانت سائدة بين العناصر الوافدة والمحلية، لنسجل أن العنصر الأمازيغي بدأ يتعود على الوجود العربي، بل إن الطرفين عاشا جنبا إلى جنب، مكونين عشائر مختلفة في إطار الجوار والمصاهرة والعلاقات اليومية وتبادل المصالح والمعاملات التجارية[6].

---

[4] ورد عند ابن عذاري أنه كان على وادي ورغة حصن كبير يسكنه جماعة من الأمازيغ. فحل عندهم رجل من الحضر فقال:

ألا هل أتى أهل المدينة أنني بورغة بين الأعجمين غريب
إذا قلت شيئا قيل: ماذا تريده؟ لهم بين أحراز الوجوه قطوب

[5] يتعلق الأمر هنا أيضا بتحركات العرب التي كانت في اتجاه الجبال. وحسب المصادر، لم يكن ممكنا لهم أن يفلتوا من النتائج الحتمية، فتمزغت ألسنتهم بالمصاهرة والمجاورة، وفقدوا كل صلة لهم باللغة العربية. ونجد من المصامدة من نقلت عنهم المصادر بأنهم من العرب الذين لجأوا إلى الجبال طلبا للأمان والنجاة أثناء موقعة الأشراف، (مجهول، الاستبصار، ص: 210)، فاكتسبوا بذلك اللغة الأمازيغية وأصبحوا لا يكادون يتكلمون باللسان العربي. وقد أشار الوزان إلى أن العرب الذين عاشوا بين الأمازيغ واندمجوا معهم تغيرت لغتهم وصارت خليطا من اللهجات الأمازيغية. واضطر الأدارسة وأعقابهم تحت تهديد القمع والتشريد أيام موسى بن أبي العافية إلى التحصن بالمناطق الجبلية والدخول في غمار العامة لتغطية أنسابهم. وهؤلاء الأدارسة الذين عاشوا بين الأمازيغ وظلوا على اتصال بهم، تغيرت لغتهم وعلى حد قول ابن خلدون "...وافترقت الأدارسة في القبائل ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب..." (ابن خلدون، كتاب العبر،ج : 6 ، ص295). ولعل هذا يفسر الاعتقاد الراسخ لدى بعض الأمازيغ بأنهم من سلالة عربية. ونخلص إلى القول انطلاقا من هذه الأدلة التاريخية أن التواصل بين العرب والأمازيغ كان لا يسير دائما في اتجاه التعريب، وإنما حدث العكس أحيانا، خصوصا في الجبال، حيث ظلت الأمازيغية صلبة الموقع.

[6] شكلت التجارة عنصر تعريب، حيث انتشرت اللغة العربية عبر الطرق التجارية، واستطاعت أن تخترق مواطن متعددة. ويظهر أن هوارة، وهي مجموعة قبلية أمازيغية لها وجود تاريخي عريق، قد تعربت عن طريق التجارة الكبرى (زنيبر، 1999) التي جلبت العنصر العربي. ولاشك أيضا أن للعامل التجاري دوره في تسرب اللغة العربية إلى سجلماسة، التي تحولت إلى محور للتبادل التجاري (Levy, 1998)، وظلت لمدة طويلة مركزا مهما للمسالك الكبيرة التي تخترقها القوافل التجارية. وبما أنها كانت محط رحلات التجار

كان للمدن دور ريادي في تعميق جذور اللغة العربية، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون في قوله: *" ...اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة، أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها، ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية..."* (ابن خلدون، 1988). وإذا كان الحضر يتعلمون لغة الوافد لدوافع سياسية وإدارية، فلا غرابة أن تنتشر اللغة العربية بين سكان مدينة نكور التي اختطها بنوصالح الحميريين سنة 123 هـ/741 م، وهم عرب ينتسبون إلى قائد عربي حل بالمنطقة منذ الفتوحات الإسلامية واتخذها موطنا لـه، ويبدو أن عربا صاحبوه واستقروا معه. واضطلعت إمارة نكور بأدوار مهمة، ولعبت دورا كبيرا في نشر الإسلام بين قبيلتي صهناجة وغمارة (البكري، 1911؛ ابن خلدون، 1988؛ ابن عذاري، 1980) كما قاومت تيار الخوارج والشيعة، ونشطت في حماية الساحل الشمالي من الغزوات الأجنبية. وفضلا عن هذا وذاك، ساهم عرب نكور في نشر اللغة العربية بين أهل الريف من غمارة وصنهاجة (مصطفى أبو ضيف، 1986).

وكانت إمارة نكور على علاقة وثيقة بالأندلس، لما كان لبني أمية على بني صالح من أيادي بيضاء في فداء أسراهم الذين وقعوا في يد النورمان (ابن القوطية، د.ت). ويفهم من رواية البكري أن بعض الربضيين لجأوا إلى جبال الريف، ويحتمل أن تكون إمارة نكور قد آوت بعضهم. ولا شك أنها كانت مركز جذب لعناصر عربية أخرى مثل الأمراء الأدارسة، فمن المرجح أن اللغة الأمازيغية بمدينة نكور كانت تتراجع تدريجيا.

وبعدوتي فاس، نلمس آثار التعريب الذي استمد قوته من العناصر الأندلسية والقيروانية (إسماعيل العربي، 1983). ويبدو أنه ما كان بإمكان هذه المدينة التي أصبحت مرفأ لهذه الجماعات أن تفلت من التعريب، بل إنها سخرت جهدها لتعريب المغرب (Marçais, 1938). والملاحظ أيضا أن المناطق التي استقر فيها الأمراء الأدارسة وحراسهم وحاشيتهم، قد بدأت تحتضن اللغة العربية. واستفاد إدريس الثاني من خبرة الجالية القيروانية في تعريب الإدارة، لذلك سارت اللغة العربية في أعقاب السلالة الإدريسية وحلت معهم حيثما حلوا[7].

عبر طرق التجارة الدولية فإن أهلها كانوا يجالسون مثلا تجار القيروان وبعض المدن المشرقية والأندلسية. ويبدو أن وسيلة التفاوض التجاري كانت هي اللغة العربية، لذلك فإن القوافل التجارية وفرت فرص الاحتكاك اللغوي.

[7] حسب النصوص التي تم الاطلاع عليها، عرف المغرب الأقصى هجرة داخلية أملتها تطورات المجتمع الداخلية والتفاعلات الحاصلة مع محيطه. وكما تتفق أغلب المصادر، فبعد وفاة إدريس الثاني سنة 213 هـ/828 م خلفه ابنه محمد الذي نهج سياسة لا مركزية، وقام بتقسيم السلطة بين اخوته بنصيحة جدته كنزة (مجهول، مفاخر البربر، ص، 260-261). وإذا كان جل المؤرخين يذهبون إلى إبراز التأثير السلبي الذي لعبه هذا الإجراء على المستوى السياسي، لأنه كان أحد أسباب تفكيك السلطة المركزية وإضعاف نفوذه، فإنه

لا ريب أن احتكاك الأمازيغ بالأمويين الذين وضعوا المغرب تحت نفوذهم أزيد من قرن كان له أثر في نشر اللغة العربية بين السكان، خاصة أن الإدارة الأموية قد جلبت إلى سبتة عددا من الإداريين الناطقين بالعربية؛ بل إن ما جادت به مدينة سبتة من أدباء وعلماء دليل على انتشار الإسلام والتعريب بها (Rosenberger R. 1998). وكما سبقت الإشارة فإن الكثير من الأندلسيين اتخذوا المدن المغربية موطنا لهم خاصة خلال العصر المرابطي، حيث توطدت العلاقة السياسية والتجارية بين العدوتين بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ المغرب، فنقلوا بذلك لغتهم (Lévy S. 1998) وثقافتهم، وتأثر سكان الحواضر بكثير من كلامهم. وتسربت اللهجة الأندلسية بألفاظها ومقاطعها التي تعود إلى لغة القبائل العربية التي استوطنت الأندلس منذ الفتح الإسلامي.

ساهم العنصر الأندلسي والقيرواني بشكل أو بآخر في تقدم اللغة العربية داخل المناطق الحضرية، وحتى في بعض المناطق الريفية المجاورة لها (إبراهيم حركات، 1998)، وذلك بدرجات متفاوتة. غير أنه حسب المعطيات المتوفرة، ليس هناك ما يسمح بالاعتقاد أن تعريب المدن كان عميقا على النحو الذي توحي به القراءة الأولية للنصوص، لذلك لابد من الحذر عند قراءة الروايات القليلة التي وصلتنا عن الوضع اللغوي.

وحسب ما يقتضيه قانون التفاعل اللغوي، فإن هذه المدة القصيرة تبدو غير كافية كي يستبدل سكان المدن لغتهم الأصلية باللسان العربي، لذلك ظلت المدن تتلقى اللغة العربية بإيقاع بطيء (Rosenberger, 1998). وإذا استثنينا الحياة الرسمية والنخبة المثقفة من الفقهاء والعلماء الذين ارتبطوا بالبلاط، وهم أصحاب ثقافة عربية، ولهم معرفة واسعة باللسان العربي (Guichard, 1977)، فإن اللغة الأمازيغية كانت لا تزال حية تتمتع بنفوذها في كثير من المدن إلى جانب اللغة العربية التي كانت "تحبو حبوا". ومن المؤشرات على عدم عمق التعريب، هو أن الأسرة الأمازيغية داخل المدن حافظت على لغتها كأداة للتواصل اليومي بين أفرادها.

وتماشيا مع طبيعة الفكر السائد الذي لم يكن يسمح للمرأة بالاحتكاك الخارجي، بقيت الأسرة هي الأمين على اللغة الأمازيغية، وحالت دون اضمحلالها وانمحائها رغم استعمال رجالها للعربية (إبراهيم حركات، 1998). وأغلب الظن أن ألسنة الأسر الأمازيغية لم تتغير بسبب صلابة بنيتها في وجه المؤثرات الخارجية، إلا من كان منها كثير الامتزاج بالعرب. وإذا كان الأمر على هذا النحو في يومنا هذا، خصوصا

من زاوية أخرى ساهم في تمصير أجزاء من المغرب، بظهور مراكز حضرية صغرى أصبحت مراكز جذب لجماعات أندلسية مثل البصرة وغيرها. كما أدى هذا التقسيم إلى توزيع السلالة الإدريسية والعنصر العربي على مختلف أنحاء النفوذ الإدريسي مثل سبتة وطنجة وأصيلا والبصرة، وغيرها.

في البوادي النائية، فيمكن القول إن المرأة باعتبارها الحضن الأول، كانت -ولا تزال- تقوم بدورها في الحفاظ على وجود اللغة الأمازيغية للتخاطب بين أفراد الأسرة، وهذا لـه أهميته بالنسبة للدراسات الاجتماعية.

لم تكن أدوات التواصل موحدة بين المجموعتين الأمازيغ والعرب. واستمر اللسان العربي إلى جانب اللسان الأمازيغي بوجود جماعات تتواصل في الحياة اليومية باستعمال اللغتين (Rosenberger 1,998). وهذه الإزدواجية اللغوية لم تكن سوى مظهرا لتنوع لغوي. وجملة القول، إن المدن كانت تسير في طريقها نحو التعريب بإيقاع بطيء، وبخطى متعثرة لكنها مستمرة لا تتوقف.

ب- واقع التعريب بين مدن الشمال ومدن الجنوب

إذا كانت خلاصة القراءة التي تقدمت هي أن تعريب المدن سبق تعريب البوادي، وأنه كان للمدن الدور الريادي في تعميق جذور العربية (Marçais,1938)، فإن ما يسترعي الانتباه أن الفرص بين المدن لم تكن متكافئة، إذ نلاحظ تفاوتا كبيرا بين مدن الشمال ومدن الجنوب. ونشير إلى أن المعلومات التي تتعلق بالجنوب يغلب عليها الاختصار، فالكتابات التاريخية لم تهتم بها إلا قليلا، ولا أدل على ذلك أنه خلال القرنين (2 و3 هـ 8 و9 م) حظي شمال المغرب باهتمام أكبر من طرف أصحاب المصادر، لكن ماذا عن الأدلة التي تبين أن التعريب تركز في مدن الشمال دون الجنوب؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، لابد من إبداء مجموعة من الملاحظات البديهية، وهي أن جل المدن نشأت في النصف الشمالي من بلاد المغرب، وهذا يحمل دلالة تاريخية وسياسية واستراتيجية. فالمنطقة آهلة منذ وقت مبكر، كما أنها كانت أولى المناطق التي وطئتها أقدام الفاتحين. وكما سبقت الإشارة فقد تجمع لها من الحيوية، ومن المؤهلات الطبيعية والاقتصادية ما يغري بالاستقرار بها، على خلاف النصف الجنوبي الذي كانت أهميته تتركز بالخصوص في الجانب التجاري. وفضلا عن هذا وذاك، فإن الشاطئ المتوسطي كان هو المنفذ الرئيس الذي استعمله المغرب في العصر الوسيط، لذلك اكتسبت مدنه أهمية كبيرة (Lombard, 1971).

أما الوضع في الجهات الجنوبية فكان على العكس من ذلك، لأن المجتمع الحضري لم يكن يشكل سوى ظاهرة استثنائية بالمقارنة مع الشمال. فالطابع البدوي كان يغلب على المناطق الجنوبية، وأغلبها عبارة عن مساكن وقرى متفرقة لا ترقى إلى مستوى المدينة. وهذه حقيقة لها ما يؤكدها في الواقع، ذلك أن المصادر التاريخية لم تشر إلى مدن جنوبية كثيرة باستثناء قلة معدودة مثل سجلماسة، وأغمات، وتارودانت ولم يعرف الجنوب توسعا عمرانيا مثل الشمال؛ بل ظل يعيش في شبه

عزلة جغرافية تطغى عليه البساطة، ولا يظهر عليه أثر كبير للتحضر. وقد ساهم بناء مراكش- العاصمة المرابطية -في إخراج الجنوب المغربي من عزلته تلك، وخلق نوعا من التوازن بين الشمال والجنوب (زنيبر، 1999)، لكنه ظل يفتقر إلى وجود حواضر كبرى.

عند ملامسة خط الانتشار العربي، نلاحظ أن المدن الشمالية كانت نقط ارتكاز الوجود العربي، لأنها كانت أكثر احتكاكا بالفاتحين الأوائل، وغيرهم من الجماعات العربية والأندلسية التي انحدرت منها أجيال عديدة التحمت مع الأمازيغ. فلا ننسى أن أول الرحلات الجماعية التي استقبلها المغرب الأقصى من إفريقية وبر الأندلس كانت هي تلك التي اتجهت صوب فاس، وتحدثت عنها المصادر بإسهاب. فمدن الشمال كانت أكثر ارتباطا بالأندلس وإفريقية والشرق؛ بينما تقل أخبار الوافدين القيروانيين والأندلسيين في الجنوب مقارنة مع الشمال. وإذا علم أن المناطق الشمالية من المغرب كانت ممرا ضروريا نحو الأندلس، ومنفتحة على الممرات التي يسلكها الوافدون، كان بالإمكان أن نفهم لماذا كان نصيب مدن الشمال أوفر، بينما كان الجنوب يعيش في عزلة بمنأى عن هذه المؤثرات الخارجية الكبرى. ولم يتم العثور على ما يفيد وجود هجرات جماعية كبرى إلى هذه الجهات كما هو الحال بالنسبة لفاس مثلا، وإنما توافدت عليها عناصر أندلسية أو قيروانية أو مشرقية شكلت نخبة في وسط تميز بسيادة العنصر الأمازيغي.

إذا كانت المدن الشمالية قد قطعت أشواطا في التعريب، فإن هذا لا يسمح بتعميم هذا الاستنتاج على بقية المدن المغربية. وحينما نتحدث عن التعريب، نستثني بطبيعة الحال مدن القسم الجنوبي على الأقل خلال هذه الفترة، لأن اللغة العربية كانت لا تزال تعترضها عراقيل كثيرة، أهمها ثقل العنصر الأمازيغي ورجحانه على العنصر العربي، باستثناء مدينة مراكش التي يبدو أنها استقبلت أعدادا من الأندلسيين خصوصا من توفرت فيهم الخبرة الإدارية، والمهارة الصناعية، وتمتعت فيها اللغة العربية بالسيادة على المستوى الإداري والثقافي. وكما سبقت الإشارة، فإن مدن الشمال ظلت تمثل حلقة وصل بين الأندلس والشرق، عاشت على إثرها حركة تواصل بشري مستمر، تربطها بالقيروان ومدن الأندلس طرق تجارية ومسالك للمسافرين، لا تنقطع حتى في أحلك فتراتها. كما عرفت نزوحا جماعيا، لذلك شقت اللغة العربية طريقها إليها بسرعة.

وخلال العصر الموحدي تنامت اللغة العربية بمراكش بفعل الوجود الأندلسي (ابن عبد الملك، 1984)، والهلالي (ابن عذاري، 1985؛ الوزان، 1980)، وربما

الـگومي (بروفانصال، د-ت) و السبتي أيضا[8]، غير أنها لم تكن منتشرة على نطاق واسع، وظلت اللغة الأمازيغية الأكثر تداولا بين الناس خاصة أن المدينة نشأت في مجال يطغى عليه العنصر الأمازيغي (البيدق، 1971؛Deverdun, 1956).

خلاصة القول إن أثر التعريب كان أكثر جلاءً في أوساط العلماء، ونخب أخرى داخل البلاط الموحدي ممن عملت بجانب الدولة، وتحملت مسؤوليات تعليمية وإدارية. وقد سبقت الإشارة إلى تركيبة المجتمع الفاسي، الذي ضم جماعات قيروانية وأندلسية هيمنت على المدينة، وطبعتها بطابعها العربي، كما ساهمت في صقل لغة أهلها وتطوير مفرداتها وبنيتها. ويعود أكبر جزء من مصطلحات دارجة مدينة فاس لهذه الموجة العربية، لذلك وجدها عبد الواحد المراكشي أجود اللغات وأفصحها "...*ولغة أهل فاس أفصح اللغات في ذلك الإقليم. ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب*..." (المراكشي، 1978).

غير أن هناك مسألة تنافي ما تقدم من شيوع العربية في لغة المحادثة، ويتعلق الأمر باشتراط الموحدين في خطباء المساجد حفظ التوحيد باللسان الأمازيغي، فعندما دخلوا مدينة فاس صرفوا عن الخطبة الفقيه أبا محمد مهدي بن عيسى خطيب جامع القرويين، وكان من أفصح الناس لسانا، وقدموا مكانه أبا الحسن بن عطية لمعرفته اللسان الأمازيغي ولحفظه التوحيد (ابن أبي زرع، 1973). وإذا كان للغة مجالها الاستعمالي الذي يضيق ويتسع حسب الظروف، والأحوال، وعامل الزمن، فلا عجب من موقف كهذا احتاج إليه الموحدون، وهو إفهام التوحيد لمن لا يعرف سوى الأمازيغية (المنوني، 1977). "...*ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلمون به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان*..." (مجموع رسائل موحدية، 1941). إلا أن هذا الإجراء لم يكن ليدوم طويلا لأن الأمور على ما يبدو أخذت مجراها الأول، ذلك أن أبا محمد يسْكُرْ بن موسى الجراوي (558-598) أحد الخطباء الرسميين بجامع القرويين، كان يؤم في الصلوات الخمس، لكنه لشدة عجمته أسند خطبة الجمعة إلى الفقيه محمد بن حسن بن زيادة الله المزني (ت572 هـ/1176 م) (ابن أبي زرع، 1973).

وقد يكون تعيين أئمة يتقنون اللسان الأمازيغي والعربي راجع إلى الأهمية العددية للمهاجرين من سكان البوادي (عز الدين موسى، 1983). وكما هو الحال بالنسبة لمراكش، عرفت مدينة فاس نموا ديموغرافيا للعنصر الأمازيغي، حيث وطّن عبد المؤمن عددا من المصامدة بفاس (البيدق، 1986). ويبدو أن توافد عائلات

[8] أشار ابن عذاري إلى أهمية الحضور السبتي ضمن نسيج ساكنة العاصمة الموحدية والمتمثل في وجود حومة تدعى حومة السبتيين، (ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 352).

أندلسية إلى المدينة خلال القرون اللاحقة[9]، سيفسح المجال لوجود اللغة العربية في الحياة اليومية لساكنتها، لذلك كان أثر الأمازيغية ضئيلا جدا في بنية الفاسية القديمة (حليلي، 1981).

يجوز -على أساس ما تقدم- أن نستنتج أن وضع المدن المغربية، كان يسمح بانتشار اللغة العربية لأن أبوابها ظلت مفتوحة أمام العناصر الأندلسية. لكن ليس هناك ما يسمح بالقول بشيوعها كلغة للتخاطب اليومي بين كافة سكان المدن. فاللسان الأمازيغي ظل حيا، وبدرجات متفاوتة تختلف من مدينة لأخرى بطبيعة الحال. ولعل ما يبرر هذا الرأي هو تنامي هجرة العنصر الأمازيغي من البوادي إلى المدن خلال العصر الموحدي، لذلك فإنه من المنطقي أن لا يظهر التعريب بشكل أكثر جلاءً إلا بعد حيز مناسب من الزمن. فالمدن المغربية كان يعوزها الاستقرار الكافي لهذه الجاليات الأندلسية حتى يتغير لسان أهلها، وتتحول اللغة العربية إلى أداة للتواصل اليومي. وقد سبقت الإشارة إلى ظواهر تدل على أن الأمازيغية كانت لا تزال متمركزة بالمدن.

6- انتقال اللغة العربية الى البوادي الموحدية

ارتبط انتشار اللغة العربية بتحركات العنصر العربي، وفي هذا الصدد يمكن القول إن الغرب الإسلامي تأثر خلال العصر الوسيط بتنقلات بشرية شديدة التنوع، همت مختلف المجالات الممتدة عبر الأرياف والمدن (القبلي، 1997). وعرفت المنطقة ما يكفي من الحركية السكانية، وأبرز هذه التحركات تهجير القبائل العربية خلال القرن الخامس الهجري/11 م. وهي هجرة من نوع آخر تختلف عن سابقاتها كمّاً ونوعا. وقد اهتمت المصادر بهذا العنصر الجديد لكونه أهم كتلة بشرية عربية دخلت المغرب منذ الفتوحات الإسلامية، وكذلك لما أعقبه من تطورات ونتائج على جميع المستويات؛ خاصة على المستوى اللغوي.

إذا كانت الهجرات الهلالية قد حقنت المغرب الأقصى بدماء جديدة، وطعمته بالعنصر العربي، فإن انتقال العرب لم يكن له الطابع الفجائي الذي شهدته إفريقية. فالوضع لم يكن مشابها لأن إنزالهم جاء نتيجة تخطيط محكم، وتدبير منظم، وبدعوة ملحة من طرف الدولة الموحدية (ابن صاحب الصلاة، 1964؛ زنيبر، 1999). ويعتبر تهجير القبائل العربية إلى المغرب الأقصى إعلانا عن ميلاد مرحلة جديدة في تاريخ التعريب، خاصة أن هذه المجموعات العربية لم تفقد الكثير من مظاهر ثقافتها الأولى. فحيثما حلت أدخلت معها مراسيمها، وعاداتها، ولغتها؛ لذلك شكلت الدفعة الجديدة

[9] هاجر آخر ملوك بني الأحمر ومعه عدد من الفقهاء والقضاة والأطباء والعلماء والحكماء، متخذا وجهته مدينة فاس، (المقري، 1968).

التي رسخت نفوذ اللغة العربية بالبوادي خاصة أن حضورها كان منحصرا في المراكز الحضرية التي كانت المقر الرئيس للمجموعات العربية الأولى. وقبل التطرق إلى الدور الذي ساهمت به هذه الهجرات في تعريب البوادي سنحاول إبداء الملاحظات الآتية:

● الملاحظة الأولى : هي ندرة المعلومات المتعلقة بالبوادي المغربية التي ظلت مهمشة بسبب هيمنة المدينة. ذلك أن المصادر لم تهتم سوى بالحواضر الكبرى مثل فاس ومراكش، وخارج أسوار المدن كان صمت المصادر يزداد. وكلما تم الابتعاد عن المجال الحضري، أصبحت المعلومات قليلة، ولا نكاد نسمع شيئا عن السكان وحياتهم اليومية، وظلت العلاقة بين المدن وباديتها تكاد تكون باهتة. ولاشك أن العلاقة مثلا بين مراكش وفاس مع القيروان وتلمسان وبعض حواضر الأندلس الكبرى أوضح بكثير في المصادر، من علاقتها مع البوادي المحيطة بها. وإذا ذكر سكان الأرياف ففي معرض الفوضى، أو المساهمة في الحملات العسكرية، أو عبر استخلاص الجبايات. وكأن علاقة السلطة بالبادية تنحصر في تقديم مثل هذه الالتزامات. والنتيجة أنه لا نعرف الكثير عن البوادي المغربية التي ظلت تقبع في ركن التاريخ المنسي وبقيت أخبارها مختفية، وفي أحسن الأحوال يغلب عليها التعميم.

ومع مجيء القبائل الهلالية ستبرز البادية المغربية على صفحات المصادر. كما لا ينبغي إغفال دور الصوفية الذين كانوا يتخذون البوادي والقرى مراكز يمارسون فيها أنشطتهم. وحسب كتاب **التشوف**، فإن جنوب المغرب كان مركز الثقل الرئيس لنشاط الصوفية بما وجد فيه من رباطات عريقة استمرت في أداء وظيفتها الدينية والعلمية؛ لذلك برزت البادية في كتب المناقب.

● الملاحظة الثانية : هي أن اللغة العربية دخلت إلى المغرب الأقصى ابتداء من القرن الأول والثاني للهجرة/7و8 م. وإلى حدود مجيء بني هلال وسليم كانت متمركزة أساسا في المدن، في حين بقيت البوادي بمنأى عن هذا التحول، وهذا يعكس محدودية التعريب (Marçais, 1956 ; Camps, 1983 ; Lévy, 1998). مع تهجير القبائل الهلالية، ستبدأ اللغة العربية في الزحف على البوادي لذلك فإن العصر الموحدي يعتبر بحق نقطة انطلاق التعريب في البوادي التي انتظرت لحظتها المناسبة على يد بني هلال الذين كان لهم أثر كبير في انتشار اللغة العربية بين سكان البوادي.

● الملاحظة الثالثة : هي أن اللغة العربية قد تسربت إلى بعض البوادي قبل مجيء بني هلال. ولعل أهم العوامل التي ساهمت في ذلك، قربها من العواصم

الكبرى، والقرى الآهلة بالتجار، وأرباب الصنائع والمهن، ومجاورتها للطرق التي تندفع فوقها التيارات البشرية من مختلف الاتجاهات، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لغمارة[10].

● الملاحظة الرابعة : هي أن هذه المجموعة العربية كانت تتشكل من أسر، وعائلات، وعشائر، انتقلت بأحيائها وخيامها (الناصري، 1954)، واستقرت بالمناطق السهلية. وما من شك أن هذا الاكتساح ترك بصماته على البادية المغربية.

● الملاحظة الخامسة : هي أنه لا يوجد فيما يبدو ذكر لأية مقاومة للغة العربية، في حين نجد رفضا لسلوك العنصر العربي. فالصراعات القائمة بين العرب والسكان الأصليين لم تكن مرتبطة بالانتماءات البشرية، أمازيغ وعرب بقدر ما كانت تتحكم فيها قضايا النزاع حول الأرض والمجال. ويظهر أن دخول عناصر جديدة بدوية في البنية الاجتماعية للمغرب لم يمر دون مشاكل، خاصة أنها كانت في خدمة المخزن الموحدي الذي خول لها امتيازات، وأقطعها الأراضي مقابل أداء دور الخفارة،

---

[10] رغم أن غمارة منطقة قروية لا تنتمي إلى فئة الحضر بالمعنى الصرف، فإنها تميزت بلهجة ليست بدوية ولكنها ذات مميزات حضرية كما هو الشأن بالنسبة للمدن العتيقة. ونستنتج أن هذه اللهجة انتقلت إليها عن طريق فاس التي عرفت التعريب قبل غيرها من المدن المغربية. فالمنطقة قريبة من فاس، ومعبر هام إليها. ولا ننسى كذلك أن هذه المدينة قد اكتنفت محيطها القروي "...ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى ويسكن حولها قبائل من البربر ولكنهم يتكلمون بالعربية وهم بنو يوسف وفندلاوة وبهلول وزواوة ومجاصة وغياتة وسلالجو..." (الادريسي، ج 3، ص :246) فهذه القبائل التي كانت تسكن نواحي فاس رغم أنها أمازيغية فإنها كانت تتحدث باللسان العربي الدارج خلال القرن السادس الهجري/12م لقربها من فاس.

إن التأثير الذي مارسته المدن على البوادي المحيطة بها هو الذي يفسر تعريب غمارة ببلاد الريف وتميز لهجتها. فغمارة المعروفة اليوم بجبالة تمتد على شكل هلال من طنجة إلى تازا، ومحاطة بعدد من المدن هي: نكور وبادس وتيگيساس وتطوان وسبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلا والبصرة وبني تاودا ووليلي وفاس وتازا، وهي مدن كانت موطن العديد من العرب الوافدين. كما أنها تمتعت بأسواق، وموانئ تخترقها الطرق التجارية الرئيسة لشمال المغرب. وكان من الطبيعي بسبب هذه التأثيرات أن تكون غمارة أول من تعرب(Colin).

هناك عوامل أخرى أسهمت إلى حد بعيد في تعريب غمارة، فضلا على تميز لهجة أهلها التي يرجع أصلها إلى لغة المراكز الحضرية القديمة. ولعل أبرزها أنها كانت أولى المناطق التي احتكت بالفاتحين الأوائل من العرب المرافقين لعقبة بن نافع وموسى بن نصير. كما هيأها موقعُها الجغرافي لتكون ملتقى الواردين من المشرق بقصد العبور إلى الأندلس. وخلال القرن الرابع الهجري/10م اضطر الأدارسة وأعقابهم تحت تهديد القمع والتشريد أيام موسى بن أبي العافية إلى اللجوء إلى المناطق الجبلية من غمارة والريف والتحصن بها. ولا يخفى ما كان لاستيطان الأدارسة بين ظهرانيهم من تأثير أسهم في تعريبهم (الهراس، 1986). وازداد تأثر منطقة غمارة باللغة العربية حين استقبلت جماعات أندلسية في أفواج متعاقبة هروبا من الفتن التي كانت تشتعل في الأندلس. فشكلت بذلك نقطة وصل بين العدوتين، إذ منها دخل أهل الأندلس إلى المغرب الأقصى، وفيها استقر الكثيرون منهم فحلت معهم اللهجة الأندلسية. ولعل تطوع سكان غمارة للجهاد بالأندلس، وما حدث من احتكاك وتأثير متبادل مع ساكنة مدنها قد ساهم بدوره في نشر اللغة العربية بينهم (Colin) خاصة في طابعها الأندلسي.

واستخلاص الجباية. فتحول بذلك هؤلاء الجباة إلى أسياد (ابن خلدون، 1988؛ ابن عذاري، 1985). وبما أن النظام الجبائي معرض للخلل في أية لحظة خاصة في غياب سلطة مركزية رادعة، فإن الأمر يصبح متعلقا بتوازن القوى بين القبائل الجابية، والقبائل الغارمة (بولقطيب، 2001) فتحولت بذلك القبائل العربية إلى عبء بسبب ممارساتها التي لم تكن تخلو من أعمال السطو والنهب، لذلك كان من الطبيعي أن تحدث صراعات بينها وبين السكان.

وإن الوقوف على كتابَيْ **التشوف** و**المقصد الشريف** من شأنه أن يوضح هذه العلاقة. فالمصدران معا يقدمان صورة لعلاقات لا تخرج عن إطار الصراع، غير أن الاندماج بين الطرفين كان ضرورة فرضتها طبيعة الحياة، والمعاملات اليومية، وإن لم يخل ذلك من صعوبة. وكان لعامل المصاهرة، وصلات القرابة، والمجاورة في المساكن، والاختلاط في الأسواق والمراعي دور في عملية الإندماج. ومع مرور الزمن تحولت القبائل العربية من عناصر دخيلة إلى عناصر منخرطة في النسيج الإجتماعي. ولعل عامل التساكن، والتمازج بين مختلف المكونات البشرية على اختلاف أصولها، من المميزات التي انفرد بها المجتمع المغربي.

أ- مواطن القبائل العربية بالمغرب الأقصى

اكتسح العرب الهلاليون بوادي المغرب الأقصى وسهوله (Marçais, 1913). ولم يكن لهذا الإكتساح البارز أن يتم دفعة واحدة، وإنما عبر مراحل. وأهم ما لاحظه الدارسون عن زحف القبائل الهلالية ما كان من آثار هذا الانتشار العربي. ومن أهم المناطق التي استقبلت العناصر العربية نجد دكالة وتامسنا وبلاد الهبط وسهل تادلا وبلاد ملوية وسجلماسة ودرعة والمنطقة التي تليها غربا إلى المحيط (ابن عذاري، 1985؛ ا بن خلدون، 1988).

ب– عوامل ساهمت في التمكين للغة العربية بالبوادي

لعل تهجير القبائل العربية كان السبب المباشر الذي عمل على تعريب البوادي (Marçais, 1991)، خاصة أنها تفرقت على سهول المغرب وصحراءه، وجاورت أهل البلاد، وامتزجت بهم فتوسعت بذلك رقعة التعريب. وأهم ما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد أن ظاهرة الترحال قد ساعدت على تعزيز انتشار اللغة العربية (Camps, 1980). كما ساهمت التحركات الداخلية بدورها في هذا المجال.

- **الترحال:** ظاهرة موجودة في مناطق متعددة من بقاع الأرض، تحدث في بيئات متعددة، وهي وليدة ظروف اجتماعية وطبيعية، مثل قلة التساقطات والجفاف. هذا النشاط الاجتماعي يعكس التفاعل الدائم والطويل مع البيئة. والعرب بحكم تقاليدهم الموروثة اعتادوا على الترحال والحياة البدوية، فهم أهل كسب ورعي أكثر منهم أهل

زراعة. احترفوا الرعي ومارسوه منذ قرون عديدة (الناصري، 1954) وكانت تحركاتهم مدفوعة بالرغبة في الحصول على مراع جيدة لماشيتهم، وامتلاك موارد المياه. فعرب معقل الذين كان نمط عيشهم يعتمد أساسا على الرعي وسكنى الخيام قد تقلبوا في قفار صحاري درعة ثم ارتحلوا إلى تادلا (ابن خلدون، 1988). كما تعودت القبائل الأمازيغية على الترحال منذ القديم من أجل امتلاك مناطق غنية، لذلك فإن التعريب انتشر خاصة عند الرحل الأمازيغ (Camps, 1983؛ صدقي، 2002).

- **التحركات القبلية:** كان للموحدين السيطرة التامة على القبائل العربية، حيث تمكنوا في أول الأمر من التحكم في عملية انتشارها. واستطاعوا ضبط تحركاتها، وتسييرها وفق إرادتهم؛ وإن لم يكن ذلك بالأمر اليسير، لأن نزول عرب بني هلال وسليم بالمنطقة كقبائل لها عصبية وتقاليد حربية، لم يكن من السهل أن تنقاد دائما للطاعة؛ خاصة أنها لا تخضع إلا لمن هادنها (مجهول، الاستبصار، ص : 129). وعندما أخذت الدولة الموحدية في الضعف، تمادى بنو هلال في تمردهم، واستهانوا بسلطة الدولة (ابن عذاري، 1985؛ ابن أبي زرع، 1973؛ ابن خلدون، 1988). وكانوا يخرجون من حين لآخر عن طوعها، ويطلبون مجالات أخرى[11] فكانت لذلك نتائج على مستوى التوزيع السكاني.

وعملت الدولة الموحدية على التخفيف من حدة التحركات القبلية، فجاء رد فعلها قويا. ففي سنة 600 هـ/1203 م، وجه الناصر حملة تأديبية لعرب تادلا الذين رحلوا إلى تامسنا، فاستحكمت العداوة بينهم وبين القبائل التي كانت تقطن بالمنطقة. فوجه جيشه لإعادة توطين القبائل المهاجرة بمواطنها السابقة بتادلا (عزاوي، 1995). وعندما تحرك الرشيد إلى الغرب سنة 635 هـ/1238 م، فر الخُلْط أمامه، وافترقوا في القبائل (ابن عذارى، 1985). وظلت المجموعات العربية تتعرض لتقلبات في المناطق بسبب نزعتها الاستقلالية، ودخولها غمار السياسة، مما ساهم في الرفع من أعداد الناطقين باللغة العربية.

- **الجيش**: وفر الانخراط في الجيش للأمازيغ وللعرب فرصة الالتقاء والاحتكاك، (العروي، 2000). فالجيش الموحدي لم يكن دائما داخل المغرب، ولكن كان له اتصال دائم ومباشر بشرق المغرب والأندلس، وهي مناطق كان لها تأثير في التعريب. فأمام ضغط المعارك المشتعلة بالأندلس كانت حاجة الموحدين كبيرة لسيوف العرب، لذلك أدمجوهم في الجيش إلى جانب الأمازيغ، والغُز، والأندلسيين،

[11] انتشر عرب معقل بسهل سوس، وما والاه ابتداء من منتصف القرن السابع الهجري، حيث نزحوا من الغرب ليزاحموا قبائل سوس، وليربطوا الصلة مع علي بن يدر الذي تمرد على ممثل السلطان بتارودانت، وتحصن بها خلال عام 636هـ/1239م، (ابن خلدون، كتاب العبر، ج: 6، ص، 367).

والروم. ومادام العرب قد استقدموا لهذا الغرض نظرا لخبرتهم القتالية، فقد شكلوا عناصر مهمة في هذه المؤسسة، وخاضت بهم الدولة الموحدية معارك جهادية. ولعل إسهام العرب الهلالية في الجيش الموحدي كانت له آثار بعيدة المدى في تعريب القبائل الأمازيغية.

ج– تغلغل اللغة العربية في البوادي المغربية

تعرب الأمازيغ تدريجيا بمخالطتهم للمجموعة العربية (Camps, 1980)، فقبائل هوارة، وهي تجمع أمازيغي قديم، استعربت كغيرها من القبائل التي خالطها العرب، وربما كانت من القبائل الأولى التي تسربت إليها اللغة العربية لأنها كانت على اتصال شفوي مستمر معهم (الوزان، 1980). وأغلب الظن أن لسان أهلها تغير بسبب تعاطيهم للتجارة الكبرى، حيث كان استعمال اللغة العربية سائدا (زنيبر، 1999)، كما انتشرت اللغة العربية في شرق المغرب، لأن قسما مهما من عرب معقل قد استوطن المجالات المترامية بأقصى المغرب الشرقي، وجاور قبائل زناتة الرعوية في القفار (صدقي، 2002). وتغلغلت اللغة العربية كذلك في أجزاء غير يسيرة من الصحراء[12].

ولاشك أن أثر القبائل العربية ببلاد الهبط الواقعة بين مجاري مياه اللكوس وواد لاو كان واضحا، فقد أقام بنو رياح بالمنطقة ابتداء من القرن السادس، وفي القرن الثامن حلت بها قبائل الخُلْط، وبنو سفيان، وبنو جابر، وبنو عاصم.

ويبدو أن البادية كانت تعرف ازدواجية لغوية، فالأمازيغية كانت لاتزال تحتفظ بمكانتها كلغة للتخاطب اليومي في البوادي، إذ ما كان لهذه الفترة الوجيزة أن تسمح باستبدال اللغة الأصلية، لأن اللغة كما سبق الذكر تخضع لقانون التطور. وقد سجل ابن قنفد أثناء زيارته لدكالة سنة 769 هـ /1367 م أن القليل من سكانها يتكلم العربية (ابن قنفد، 1965). وإلى نهاية القرن الثامن كانت أزمور المدينة الرابضة على الضفة اليسرى لمصب نهر أم الربيع لا تزال تحتفظ بلسانها الأمازيغي، وذلك حسب شهادة ابن الخطيب (ابن الخطيب، 1977). ولاحظ الحسن الوزان خلال القرن العاشر الهجري/16 م أن سكان الشاوية كانوا يتحدثون بالأمازيغية. وهكذا فإن الأمازيغ كانوا يتعربون تدريجيا. ومع مرور الزمن سيأخذ التعريب في البوادي وجها أكثر بروزا، وستزيده الأيام رسوخا، كما كان للقبائل العربية أكبر الأثر في تشكيل لهجة البوادي التي تميزت بطابعها الخاص، حيث التأثير البدوي واضحاً ويمكن تمييزها بسهولة

[12] وكما نشاهد اليوم مازال التأثير العربي أقرب إلى أصله بجزيرة العرب مصدر القبائل العربية المهاجرة، ولعل وجود بعض التصاريف النحوية الآن في الصحراء، دليل على أن اللغة العربية قد تسربت عن طريقهم. وغالبا ما يتميز أهل الصحراء بلغة متينة تعتمد على حفظ أراجيز العرب. وهم أصحاب ميول أدبية يتذوقون الشعر العربي ويطربون له. كما أن ملامح الشعر الجاهلي والأموي تنطبع قوية على إنتاج شعرائهم (الجراري، 1978).

عن لهجات سكان المدن.

خاتمة

كان هذا الواقع وليد تفاعل يومي وتاريخي، عرفه المجتمع المغربي على مراحل وحلقات، وبكيفية تدريجية وبطيئة تسير وفقا لقانون التطور الذي يخضع له عادة انتشار اللغات والعادات وسائر المؤثرات الحضارية.

وخلال القرون اللاحقة ستصبح اللغة العربية سارية في شرايين المجتمع المغربي، ملتحمة به إلى جانب اللغة الأمازيغية، على اعتبار أنهما إحدى العناصر الفاعلة لحفظ الهوية التي تشكلت - ليس في المغرب الأقصى وحده - ولكن في كل أقطار الشمال الإفريقي. وفي عمق التاريخ المغربي نجد هذه الهوية الحضارية الأمازيغية العربية، وهي من الثوابت التي حسمت في تاريخ المنطقة، وتبلورت معها هوية المغاربة.

بيبليوغرافيا

ابن أبي زرع، أبو الحسن علي الفاسي (ت 1325/726)، (1973)، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، نشر عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور.

ابن الخطيب السلماني، لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد (ت 776-1374)، (1977)، *معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار*، الرباط، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب.

ابن الزيات التادلي، أبو الحجاج يوسف بن يحيى (ت 627/ 1229)، (1984)، *التشوف إلى رجال التصوف*، تحقيق أحمد التوفيق، نشر كلية الآداب بالرباط.

ابن القاضي، أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، (1616/1029)، (1973)، *جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس*، نشر عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور، ط 1.

ابن القوطية القرطبي، (ت 367)، *تاريخ افتتاح الأندلس*، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، دار النشر للجامعيين، (د ت).

ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد الحضرمي (ت1405/808)، (1988)، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*، بيروت، دار الفكر.

ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك بن محمد الباجي (توفي بعد عام 1198/594)، (1964)، *تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، وظهور الإمام المهدي في الموحدين على الملثمين، وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وآخر الخلفاء الراشدين*، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، دار الأندلس، ط 1.

ابن عبد الحكم، عبد الرحمان بن عبد الله القرشي (187- 257)، (1964)، *فتوح إفريقية والأندلس*، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

ابن عبد الملك المراكشي، محمد بن محمد بن سعيد الأنصاري (634-703)، (1984)، *الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن*، تحقيق محمد بنشريفة، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.

ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (كان حيا سنة 1312/712)، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق كولان وآخرون، بيروت، دار الثقافة، 1980،ج 2، وقسم الموحدين، تحقيق الكتاني وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، والدار البيضاء، دار الثقافة، 1985.

ابن قنفد القسطنطيني، أحمد بن الخطيب (ت1408/810)، (1965)، *أنس الفقير وعز الحقير*، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي.

أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (ت944/333)، (1968)، *كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس*، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، الدار التونسية.

أبو ضيف أحمد، مصطفى، (1986)، *أثر القبائل العربية في الحياة المغربية من الفتح العربي إلى سقوط الدول المستقلة*، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ط 1.

البادسي، أبو محمد عبد الحق بن إسماعيل (توفي بعد 1322/722)، (1982)، *المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف*، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، المطبعة الملكية.

بروفنصال، ليفي، *الإسلام في المغرب والأندلس*، ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، مكتبة نهضة مصر.

البكري أبو عبيد (ت1085/478)، (1911)، *المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب*، نشر دي سلان، باريس.

بِلْ، ألفرد، (1981)، *الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم*، ترجمة عبد الرحمان بدوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 2.

بولقطيب، الحسين، (2001)، *الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى*، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، شعبة التاريخ، جامعة بوشعيب الدكالي، كلية الآداب بالجديدة، مرقونة.

الجراري، عباس، (1978) ، *ثقافة الصحراء*، الدار البيضاء، دار الثقافة.

الجزنائي، (1967)، *جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس*، نشر عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية.

حافظي علوي، حسن، (1997)، *سجلماسة و إقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي*، الرباط، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

حركات، إبراهيم، (2000)، *مدخل إلى تاريخ العلوم في الغرب المسلم حتى القرن 15/9*، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ط 1 .

حركات، إبراهيم، (1998)، *المجتمع والسلطة في العصر الوسيط*، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق.

حليلي، عبد العزيز، (1981)، « مقارنة في النظام الصوتي للعربية الفصحى والنظام الصوتي للفاسية القديمة »، *مجلة البحث اللساني والسيميائي*، منشورات كلية الآداب بالرباط.

الدباغ، أبو زيد، عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسدي (605 – 696)، (1968)، *معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان*، أكمله أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت 1435/839)، تحقيق إبراهيم شبوح، مصر، مكتبة الخانجي.

الرقيق القيرواني، أبو إسحاق ابراهيم بن القاسم، (1968)، *تاريخ إفريقية والمغرب*، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، تونس.

زنيبر، محمد، (1991)،« التبادل الثقافي بين الأندلس والمغرب وأثره في التطور العلمي بالبلدين»، *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية*، الرباط، ع 16.

زنيبر، محمد، (1999)، «الثورة الموحدية»، «أغمات ومراكش من خلال نزهة المشتاق للإدريسي»، « الحس الإعلامي عند الموحدين»، ضمن: *المغرب في العصر الوسيط الدولة، المدينة، الاقتصاد*، منشورات كلية الآداب بالرباط، ص 115 –131 و ص ص 329 - 340 و ص ص 175 – 194.

الشريف الإدريسي، محمد بن عبد الله الحسني السبتي (ت1165/564)، (1970)، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، تحقيق جماعة من الباحثين .

صدقي، أزايكو علي، (2002)، «الإسلام و الأمازيغ »، *مجلة الهوية* ،عدد 15، ص 5-65.

الصنهاجي، أبو بكر بن علي، (1986)، *أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين*، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2

الصنهاجي، أبو بكر بن علي،(1971)، *أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين*،

نشر عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط.

الطالبي، محمد، (1985)، *الدولة الأغلبية*، ترجمة المنجي الصيادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (د-ت)، *تاريخ الأمم والملوك*، دار القاموس.

العربي، إسماعيل، (1983)، *دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة*، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

العروي، عبد الله، (2000)، *مجمل تاريخ المغرب*، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،ج2، ط2.

عزاوي، أحمد، (1995)، *رسائل موحدية، مجموعة جديدة*، منشورات كلية الآداب بالقنيطرة، ج 1.

العلوي القاسمي،هاشم، (1995)، *مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/10م*، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

القادري بوتشيش، إبراهيم، (1994)، «علاقة الخلافة الإسلامية بمنطقة سوس إبان عصر الولاة»، *ضمن: تاريخ الغرب الإسلامي : قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة*، بيروت، دار الطليعة، ، ص37-53.

القبلي، محمد، (1997)،« حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد»، ضمن: *الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل*، الدار البيضاء، دار توبقال، ص41-70.

مؤلف مجهول (توفي بعد 1191/587)، (1985)، *كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار*، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ط2.

مؤلف مجهول، (1934)، *مفاخر البربر*، نشر ليفي بروفنصال، الرباط، المطبعة الجديدة.

المالكي،أبو بكر عبد الله بن محمد (ق11/5)، (1983)، *كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقية وزهادهم و نساكهم و سير من أخبارهم وفضائلهم و أوصافهم*، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

مجموع رسائل موحدية *من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية*، (1941)، نشر ليفي بروفنصال، الرباط، المطبعة الاقتصادية.

المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت 647- 1249)، (1978)، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيق محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي، الدار البيضاء، دار الكتاب، ط 7.

المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت1632/1041)، (1968)، *نفح الطيب*

في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

المنوني، محمد، (1977) ، *العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين*، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط 2.

موسى، عز الدين عمر، (1983)، *النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري*، بيروت، دار الشروق.

الناصري السلاوي، أحمد بن خالد، (1954)، *االإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*، الدار البيضاء، دار الكتاب.

الهراس، المختار، (1986)، «سيرورة تكون الهياكل القبلية في جبالة»، *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط*، ع 12.

الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، (1980)، *وصف أفريقيا*، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف و الترجمة، الرباط، ط 1.

Aguadé, J. et *al* (1998), *Peuplement et arabisation au Maghreb occidental Dialectologie et histoire*, Madrid-Zaragoza, Universidad de Zaragoza, Area de Estudios Arabes e Islamicos.

Camps, G. (1980), *Berbères aux marges de l'histoire*, Hespérides.

Camps, G. (1983), « Comment la berberie est devenue le Maghreb arabe » *R.O.M.M*, 35, pp.7-24.

Colin , G. S « Al – Magharib », *Encyclopédie de l'Islam*, T. I, pp. 1193-1198.

Cressier, P. (1998), « Urbanisation, arabisation, islamisation au Maroc du Nord : Quelques remarques depuis l'archéologie », *in Peuplement et arabisation au Maghreb occidental, Dialectologie et histoire*, Madrid-Zaragoza, Universidad de Zaragoza, Aréa de Estudios Arabes e Islamicos, pp.27-38.

Deverdun, G. (1959), *Marrakech des origines à 1912*, Rabat, Editions techniques Nord- Africaines, T.I.

Fatha, M. (1982), *Contribution à l'histoire de la ville marocaine des Mérinides au Wattassides*, Bordeaux.

Garcin, J.C et autres, (2000), *Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval X-XV siècle*, Paris, PUF

Guichard, P. (1977), *Structures sociales "orientales" et "occidentales" dans l'Espagne musulmane*, Paris, T.I.

Laroui, A. (1970), *L'histoire du Maghreb*, Paris, F.Maspero, pp. 139-146.

Lévy, S. (1998), « Problématique historique du processus d'arabisation au Maroc : pour une histoire linguistique du Maroc », *in Peuplement et arabisation au Maghreb occidental Dialéctologie et histoire*, Madrid-Zaragoza, Universidad de Zaragoza, Aréa de Estudios Arabes e Islamicos, pp.11-26.

Lombard, M. (1971), *L'Islam dans sa première grandeur*, Paris, Flammarion.

Marçais, G. (1913), *Les Arabes en berberie du Xiè au XIVè siècle*, Paris Constantin.

Marçais, G. (1991), *La Berberie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, éd. Afrique Orient, Casablanca.

Marçais, W. (3198), *Comment l'Afrique du Nord a été arabisée*, vol I «L'arabisation des villes », Alger, A.I.E.O.

Marçais, W. (1956) *Comment l'Afrique du Nord a été arabisée*, vol II « L'arabisation des campagnes », Alger, A.I.E.O.

Marçais, W. « A*l-Arab* », *Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle édition, T. I, pp. 548-549.

Montagne, R. « La civilisation du désert » *in Revue de la Société de Géographie*, n° 7 - sept.-déc. 1948, Paris.

Rosenberger, R. (1998), « Les villes et L'arabisation. Fonction des centres urbains au Maghrib al- Aqsa (V IIIe- XVs..) », *in Peuplement et arabisation au Maghreb occidental Dialéctologie et histoire*, Madrid-Zaragoza, Universidad de Zaragoza, Aréa de Estudios Arabes e Islamicos, pp.39-52.

Sourdel Thomine, J. « Khatt », *Encyclopédie de l'Islam*,T.IV, pp.1144-1154.

Terrasse, H. « L'ancien Maroc, pays d'économie égarée », (1947), *in Revue de la méditerranée*, pp. 37-53

Terrasse, H. (1952), *Histoire du Maroc*, Casablanca, ed. Atlantides, T.I.

ملخصات الأطروحات

فؤاد أزروال (2005)، *التلقي في الفرجة الشعبية بالمغرب: دراسة في الأنماط والأسس*، أطروحة الدكتوراة، جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة.

سعت الأطروحة إلى مقاربة فن الفرجة الشعبية بالمغرب استنادا إلى المفاهيم المركزية لنظرية التلقي واعتمادا على وسائلها وأدواتها المنهجية، وذلك لأجل فهم الحيوية والاستمرارية اللتين ميزتا أغلب أشكاله (أي فن الفرجة الشعبية) عبر التاريخ بسبب استمرار علاقة التفاعل والتواصل بينها وبين مستهلكيها.

تناولت فصول البحث بهذه الأطروحة مسألة تعريف الفرجة الشعبية من زاوية التلقي وتطورها عبر العصور والحقب التاريخية بالمغرب، من خلال تتبع تلقياتها وأشكال التفاعل معها. كما وضعت تصنيفا جديدا يميز بين ثلاث مجموعات كبرى من أنواع الفرجات الشعبية المغربية بحسب طرق التواصل وظروفه التي تؤطر العلاقة بينها وبين المتلقي. وميزت أيضا، بين الأسس النسقية/ الداخلية التي توجه عمليات الاستجابة والاستهلاك، وبين الأسس السياقية/ الخارجية التي تؤطر هذه العمليات وتساهم في تفعيلها وتنشيطها.

*

* *

عبد السلام خلفي (2007)، *بلاغة الحكي في القصص الشعبي: تدوين متن وتحليل نصي – مقامي*، أطروحة الدكتوراة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، جزآن، 712 صفحة.

حاول الباحث من خلال هذه الأطروحة أن يستجلي صورتي "الأبوة" و"الأمومة" في التراث الحكائي والأسطوري لحضارات حوض البحر الأبيض المتوسط. فقسم بحثه إلى ثلاثة أبواب : تناول في الباب الأول منه صورة "الأبوة" في الأساطير الحامية-السامية، وفي الباب الثاني تناول صورة "الأم" في المتخيل الأسطوري والقصصي والحكائي عند الإغريق والأمازيغ والمصريين والفلسطينيين والسومريين إلخ. وفي الباب الثالث، تناول صورة "الأمومة" و"الأبوة" في الحكاية الشعبية الأمازيغية.

وقد شكلت هذه الأطروحة مناسبة لتحليل المنظومة الميتولوجية لوقائع الحكي، ومقارنة بعضها ببعض، وذلك بوصفها وقائع استعارية وحجاجية تعيد إنتاج المنطق الأسطوري الذي بنينته الحضارات الرعوية والزراعية طيلة تدافعها التاريخي بالمنطقة. كما شكلت مناسبة أيضاَ للوقوف على مختلف الأبعاد الميتولوجية في الحكاية الأمازيغية، ودرجة تفاعلها مع مجموع التراث الحكائي والأسطوري للشعوب المحيطة.

وتكمن أهمية الأطروحة في كونها زاوجت، أثناء مقاربتها للموضوع، بين المقاربة البيانية والمقاربة الأنتروبولوجية، كما أنها عالجت متناً ينتمي إلى عصور مختلفة، ويمتد إلى حوالي 3000 سنة قبل الميلاد.